مجلة جامعة الملك عبدالعزيز : الآداب والعلوم الإنسانية ، م ٥ ، ص ص ٤١ - ٧٤ (١٤١٢هـ/١٩٩٢م) .

دور التجار المسلمين فى رواج التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي فيما بين القرنين الثالث والخامس الهجريين (٩/١١م)

سعود بن محمد الخثلان

أستاذ مساعد ، قسم التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، جامعة الملك عبدالعزيز
جـــدة ، المملكة العربية السعودية

المستخلص : يهدف هذا البحث الذى بين أيدينا إلى تسليط الضوء على الدور الفعال الذى لعبه التجار المسلمون فى الحركة التجارية بين بلاد المغرب والسودان الغربي فى الفترة المذكورة ، فيبرز بذلك الوجه المشرق لما قام به المسلمون من أعمال وجهود عادت بالنفع العميم على المنطقتين .

وهذا الجانب من العلاقات بين المنطقتين لم يحظ بدراسة مستقلة على الأقل فى هذه الفترة وما وجد إلا إشارات فى مواضيع أخرى ذات علاقة بالمنطقتين .

كان الاتصال بين شمال افريقيا وجنوب الصحراء قديم جدا ، فالصحراء الكبرى لم تحل قط دون ذلك . وقد جرت التجارة عبر هذه الصحراء بالرغم من قساوتها ومن الشعوب التي شاركت فيها الفينيقيون والرومان من بعدهم .

ولكن كيف كان وضع التجارة بين شمال الصحراء وجنوبها خلال تلك العهود ؟ ثم ماذا كان وضعها بعد تولي المسلمين زمام الأمور فيها ؟

إن إبراز هذه الدراسة لدور التجار المسلمين فى التبادل التجاري بين بلاد المغرب والسودان الغربي وما ترتب عليه من نتائج ، دلل بوضوح على أن التجارة عبر الصحراء لم تبلغ فى أي عصر من الاتساع والرواج ما بلغته بعد مجيء المسلمين إلى المنطقة . فقد ازداد حجم السلع المتبادلة زيادة عظيمة خاصة فى سلعتي الذهب والملح . وأدخلت ترتيبات وتنظيمات فى أمور التجارة لم تكن معروفة فى المنطقة . كما تطورت وازدهرت المراكز التجارية ذات العلاقة بتجارة الصحراء الكبرى فى بلاد المغرب وفى السودان الغربي .

وبهذا يتضح أن دور التجار المسلمين لم يقتصر على مجرد نقل السلع بين المنطقتين ، بل تعداه إلى مساهمتهم مساهمة فعالة فى إدارة شؤون التجارة داخل السودان الغربي وإثراء مدنه التجارية . وإن من الأمثلة القوية التي تدل على عمق أثر المسلمين فى هذه الناحية وصولهم إلى منصب صاحب بيت المال لدى حكومة مملكة غانه قبل تحولها إلى الإسلام على أيدي المرابطين .

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن هذه الدراسة اعتمدت فى المقام الأول على كتابات أوائل الكتاب المسلمين الذين زودونا بمعلومات لاتقدر بثمن عن التجارة عبر الصحراء وعن جوانب من أوضاع التجار المسلمين وأحوالهم فى السودان الغربي . فقد كان بعضهم يكتب عن مشاهدة شخصية كابن حوقل الذى زار مدينة سجلماسه والبعض الآخر ، كالبكري ، اعتمد فى معلوماته على من التقى بهم من التجار وغيرهم ممن يمثلون مصادر مطلعة نتيجة اشتراكهم المباشر فى التجارة أو فى مجالات ذات ارتباط وثيق بها .

تمهيد

كانت الصحراء الكبرى هي الطريق الرئيس للتجارة بين الشمال الافريقي والمنطقة المسماه بجنوب الصحراء . لهذا نجد الكتاب يطلقون على هذه التجارة اصطلاح أو مسمى (التجارة عبر الصحراء) (The Trans-Saharan Trade) .

وتمر هذه التجارة بثلاث مناطق مناخية واضحة المعالم وتتدرج من الاعتدال فى حوض البحر الأبيض المتوسط إلى المناخ الحار الجاف فى الصحراء الكبرى إلى المناخ شبه المداري والمداري فى غرب أفريقيا [١] .

وقد قسم الكتاب المسلمون بلاد المغرب إلى ثلاثة أقسام هي : المغرب الأدنى ، والمغرب الأوسط ، والمغرب الأقصى [٢] .

أما السودان الغربي فإنه يشمل حوض نهر السنغال وغامبيا وبوركينا فاسو (فولتا العليا) إلى الحوض الأوسط لنهر النيجر [٣] .

وإلى جانب الاختلاف فى المناخ بين هذه المناطق ، هناك اختلاف حياة وثقافات شعوبها ، ولاشك فى أن لهذا دوره الواضح فى قيام التجارة بين الشمال الافريقي والسودان حيث اختلف الإنتاج وكميته والاحتياج ومداه لكل منطقة ، فكانت التجارة بينهما متبادلة ولم تكن قط فى اتجاه واحد [٤] .

والملاحظ أنه بالرغم من وجود الصحراء الكبرى والتي مثلت أعظم حاجز طبيعي ممكن أن يقف فى وجه حركة الإنسان ، إلا أن هذه الصحراء لم تكن فى أي فترة من الفترات عائقا يمنع الاتصال بين شمال افريقيا والسودان . فقد وجد الاتصال التجاري منذ القدم [٥] .

ولقد كشفت التنقيبات الحديثة عن وجود سلسلتين من النقوش الصخرية لعربات تجر بواسطة الخيول ، وتبدأ هذه النقوش من مكانين شمال الصحراء أحدهما من جنوب المغرب الأقصى ، والآخر من

فزان ثم تتجهان فى مسارين نحو ثنية نهر النيجر . مما يشير إلى أن هذين المسارين يمثلان طريقين كانا يربطان شمال افريقيا بالسودان (٦) .

والجدير بالملاحظة أن هذين المسارين نفسيهما استخدما من قبل القوافل التجارية فى العصر التاريخي المعروف لعبور الصحراء ونقل التجارة بين المنطقتين المعروفتين (٧) .

ولعلنا نجد فيما قام به الفينيقيون عندما سيطروا على السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط (٨٤١ – ١٤٦ ق . م) مثالا واضحا على قدم الاتصال بين المنطقتين ، إذ استطاعوا أن يتصلوا مباشرة بغرب افريقيا وأن يجروا معها مبادلات تجارية ، كما اتصلوا بالجارامانتيز Garamantes (٨) أحد شعوب الصحراء الكبرى ، حيث استفاد الفينيقيون من عمل هؤلاء كوسطاء لنقل السلع التجارية (٩) . فقد كانت قوافلهم تحمل إلى المدن الساحلية على البحر الأبيض المتوسط مسحوق الذهب والرقيق وتجلب معها إلى الجنوب النحاس وبعض المصنوعات والأقمشة . إلا أنه مهما يكن من أمر ، فإن ذلك التبادل التجاري لم يكن بالأهمية التي وصل إليها فى الأزمنة اللاحقة (١٠) .

ولما خلف الرومان الفينيقين فى شمال افريقيا واصلوا الاتصال بالجارامانتيز الذين استمروا فى العمل كوسيط فى التجارة بين الشمال والجنوب كما كان حالهم عليه أيام الفينيقيين (١١) .

وقد استفاد الرومان من الجمل عندما أدخل إلى المنطقة (١٢) وذلك لما لهذا الحيوان من مزايا عظيمة للنقل عبر الصحراء ، فكان له أثر فى انعاش حركة التبادل التجاري بشكل ملحوظ فى تلك الفترة (١٣) . وكان النقل قبل ذلك يتم بواسطة الحمير والثيران والخيل (١٤) .

ومما يشير إلى وجود صلات تجارية بين الرومان والصحراء الكبرى وجنوبها ماعثر عليه فى فزان وغيرها من مخلفات أثرية تتمثل فى بعض المنتجات الزجاجية والفخارية والخرز والأقمشة الصوفية الملونة ، هذا بالإضافة إلى النقود الرومانية المعدنية التي اكتشفت فى تغازا Taghaza (١٥) ضمن طبقات ملحية عميقة والنقود الفضية التي عثر عليها فى بعض جهات النيجر (١٦) .

لم يستمر وضع التجارة على ذلك الحال فقد تأثر بغزو الوندال لشمال افريقيا فى القرن السادس ميلادي ، فقل حجم التبادل التجاري واستمر فى التراجع حتى مجيء المسلمين إلى المنطقة ، حيث عاد الازدهار إلى التجارة عبر الصحراء (١٧) . والحقيقة أن فتح المسلمين لشمال افريقيا واستقرارهم فيها وتغلغل الإسلام فى الصحراء الكبرى وفى بلاد السودان أعطى هذه التجارة دفعة قوية جعلتها تبلغ فى حجمها وازدهارها درجة لم تبلغها من قبل كما سنرى فى هذا البحث . ولعل هذا هو السبب الذى حدا بالبعض لأن يتساءل ويقول : هل المسلمون هم الذين بدأوا التجارة عبر الصحراء ؟ ! (١٨) .

الاتصال بالسودان

لم يتأخر اتصال المسلمين بالسودان الغربي كثيرا بعد استقرارهم فى شمال افريقيا . فيذكر ابن عبدالحكم أن عبيدالله بن الحبحاب والي افريقيا أرسل حبيب بن أبي عبيدة الفهري فى حملة فغزا السوس وبلغ أرض السودان وحصل على كميات من الذهب وكان ذلك حوالي سنة ١١٨هـ (١٩) .

ونجد مايشبه التكملة لهذه الرواية فيما أورده أبو عبيدالله البكري الذى أشار إلى وجود أناس فى بلاد غانه هم من بقايا جيش كان بنو أمية قد سيروه إلى تلك البلاد (٢٠) ، وبصرف النظر عن مدى دقة الرواية فيما يتعلق بالوقت الذى أرسل فيه الجيش والمناطق التي وصل إليها بالتحديد وبالتالي علاقة هؤلاء الناس بالجيش ، إلا أنه من الممكن أن نرى فيما أورده الكاتبان إشارة قوية إلى أن المسلمين استطاعوا فى ذلك الوقت الوصول إلى السودان الغربي .

وأثناء حكم عبدالرحمن بن حبيب الفهري (٢١) لافريقية (١٢٧ - ١٣٧هـ) أمر بحفر سلسلة آبار وإصلاح الموجود منها بين واحات افريقية ومدينة أودغشت فى الجانب الغربي من الصحراء الكبرى والتي كانت من أهم المراكز التجارية القريبة من امبراطورية غانه الوثنية (٢٢) . ويبدو أن المسلمين هم أول من قام بهذا النوع من العمل خدمة للتجارة عبر الصحراء منذ أن تدهورت هذه التجارة إثر غزو الوندال للشمال الافريقي .

ولقد كانت القيروان ، فى المغرب الأدنى ، منذ القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) تمثل واحدا من المراكز الهامة للقاء القوافل التجارية من المشرق والمغرب مع القوافل التي كانت تعبر الصحراء (٢٣) مما يدل على وجود نشاط تجاري بين هذه المنطقة ومنطقة السودان الغربي منذ ذلك الوقت .

وفى المغرب الأقصى تأسست مدينة سجلماسه سنة ١٤٠هـ (٧٥٧م) كعاصمة لدولة بني المدرار الخوارج (٢٤) وبرزت كمركز تجاري بالغ الأهمية للتجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي .

ولما أسس بنو رستم الخوارج عاصمتهم تاهرت فى المغرب الأوسط سنة ١٤٤هـ (٧٦١م) (٢٥) وأنشأوا دولتهم كان للتجارة دور بارز فى اقتصادياتها . فقد بادروا بإقامة علاقات تجارية مع ممالك السودان الغربي وعلى الأخص مملكة جاو (كوكو) (٢٦) . ومارسوا دور الوسيط فى التجارة بين الشمال والجنوب واشتركوا فى ذلك مع دولة بني المدرار فى سجلماسه ولم تحل الاختلافات بين هاتين الدولتين والاختلافات المذهبية والسياسية بينهما من جهة والدول الأخرى فى المغرب من جهة أخرى دون استمرار الصلات التجارية بينهم (٢٧) .

وسنشير فى حديثنا عن المراكز التجارية ، فيما بعد ، إلى تطور هاتين المدينتين نتيجة رواج التجارة مع السودان الغربي .

ومع مضي الوقت ازدادت معرفة المسلمين ببلاد السودان واهتم فى نفس الوقت بعض الجغرافيين والكتاب المسلمين بوصفها والكتابة عنها . فعلى سبيل المثال ، الفزاري (٢٨) فى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) ذكر غانه ووصفها بأنها بلاد الذهب (٢٩) . والخوارزمي ، أوائل القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) أورد معلومات جغرافية عن غانه وكوكو والزغاوة (٣٠) . أما اليعقوبي ، فى القرن الثالث الهجري أيضا ، فإنه يعتبر صاحب أقدم نص يتضمن وصفا لمدينة أودغشت المجاورة لمملكة غانه (٣١) كما أنه تحدث عن غانه نفسها وأشار إلى كثرة الذهب فى أرضها ، وأورد مزيدا من المعلومات عن الزغاوة وكوكو (٣٢) .

وكان ذلك ، على مايدو ، مما شجع التجار للاتجاه إلى السودان الغربي حيث تكاثرت أعدادهم من فارس والعراق وغيرهما من أقاليم الدولة الإسلامية خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ، وخلال القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) أصبح معظم القائمين على التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي من التجار المسلمين (٣٣) .

ومن هذا العرض السريع لبداية اتصال المسلمين بالسودان الغربي وتطور معرفتهم به ، يمكننا أن نعتبر القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) نقطة تحول بالنسبة للتجارة بين بلاد المغرب والسودان فى تلك الفترة التي تلت غزو الوندال للشمال الافريقي ، حيث مثل المسلمون دماء جديدة ودفعة قوية لهذه التجارة جعلتها تبدأ من جديد وتنتعش فى تلك الفترة . ثم يزداد اتساعها ورواجها على مدى القرون الثلاثة التالية بشكل لم يسبق له مثيل (٣٤) .

الاستقرار فى ممالك السودان

فى مملكة غانـه

لما بدأ التجار المسلمون يدخلون بلاد السودان بعد استقرارهم فى شمال افريقيا والمناطق المجاروة لها ، وجدوا غانه أقوى وأهم الممالك فى المنطقة . وقد عبر ابن خلدون عن ذلك بقوله : «ولما فتحت افريقية والمغرب دخل التجار بلاد (السودان) فلم يجدوا فيهم أعظم من ملوك غانه . . وكانوا أعظم أمة ولهم أضخم ملك وحاضرة ملكهم غانه . . .» (٣٥) .

ثم أن التجار المسلمين استقروا فى حي خاص بهم قرب عاصمة هذه المملكة . ولقد نما هذا الحي حتى أصبح مع مرور الوقت مدينة خاصة بالمسلمين فى نفس الوقت الذي كان يمثل الشطر الأهم من عاصمة المملكة إلى جانب الشطر الآخر ، وهو مقر الملك ورعاياه من الوثنيين ، وذلك حسب ما أورده البكري من معلومات عندما كتب عن غانه ، وهي المعلومات التي اعتمد عليها كثير ممن تحدث عن هذه المملكة فيما بعد . فقد وصف البكري عاصمة غانه وبدأ بالقسم الخاص بالمسلمين فقال : «ومدينة غانه مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها إثنا عشر مسجدا أحدهما يجمعون فيه (يؤدون صلاة الجمعة) . . وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضروات» (٣٦) .

إن ذلك يؤكد أن التجار المسلمين وجدوا الظروف مواتية فى هذه المملكة للاتجار معها والتخطيط على المدى البعيد فى العمل فى التجارة بينها وبين المغرب . ولاشك أن أهم تلك الظروف المواتية التي شجعت التجار على الاستقرار كان موقف السودانيين الإيجابي من المسلمين . ولا نعتقد أن ذلك جاء فقط نتيجة لما فى أيدي هؤلاء التجار من تجارة ، فالمسلمون لم يأتوا إلى السودان بالسلع والمال فقط ، بل حملوا معهم الإسلام كدين جديد على المنطقة تميز بمبادئه السامية وأنظمته المالية والاجتماعية المتقدمة . فمن الأنظمة المالية تحريم الربا والغش والاحتكار وتوضيح أنواع البيوع والديون ، أما الأنظمة

الاجتماعية فيأتي على رأسها مبدأ المساواة بين الناس ومحاربة الطبقية والتشديد على الأمانة فى التعامل (٣٧) .

وكان من أهم ما قدمه التجار المسلمون لتجارة غانه تشكيلهم مايمكن أن نصفه بحلقة وصل فعالة ليس بين غانه وبلاد المغرب فحسب ، بل بينها وبين المراكز التجارية الأخرى فى السودان الغربي ، وذلك لتيسر الاتصالات التجارية نتيجة لوجود المسلمين فى تلك المراكز . فكان فى هذا العمل دعم حقيقي لعملية التبادل التجاري بين بلاد المغرب والسودان من ناحية وإثراء للمراكز التجارية فى غانه والسودان الغربي عموما من ناحية أخرى .

فكان لهذا أثره على السودانيين وبالتالي على موقفهم من المسلمين والذى تمثل فى القبول وحسن المعاملة (٣٨) . بل وتطور الحال إلى أن بلغ المسلمون فى مملكة غانه الوثنية مكانة عظيمة ، ولا أدل على ذلك من وصولهم إلى مناصب رفيعة المستوى فى حكومتها . فلقد وصفت المصادر ملك غانه بأنه كان محبا للعدل محمود السيرة ومؤثرا للمسلمين وإن تراجمته وصاحب بيت ماله من المسلمين وكذلك كثير من وزرائه (٣٩) .

ومن مظاهر إعزاز أهل غانه للمسلمين وتقديرهم لهم وجود مسجد فى القسم الوثني من العاصمة على مقربة من المكان الذى يجلس فيه ملك غانه للحكم . يقول البكري فى ذلك : «وفى مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد إليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك»(٤٠) ، ومن مظاهر الإعزاز أيضا أن الملك قَبِل أن تكون تحيتهم له بالتصفيق باليدين فقط أما بقية رعيته ممن هم على دينه فإنهم يحيونه بالجثو على الركب ونثر التراب على رؤوسهم (٤١) .

ولم يقتصر سكان المدينة الإسلامية فى غانه على الوافدين من خارج السودان ، إذ بمرور الوقت دخلت أعداد من أهل غانه ، وأغلبهم من الصوننك Soninke (٤٢) فى الإسلام وتحمسوا له فى الوقت الذى مازالت فيه حكومة غانه وغالبية السكان على الوثنية (٤٣) .

كما أن مدينة المسلمين لم تكن هي المكان الوحيد الذى وجد فيه المسلمون فى مملكة غانه ، إذ كانت هناك مدينتان اشتهرتا بوجود المسلمين فيهما . أما أولاهما فهي مدينة غيارو Ghiyaru ، والتي تبعد عن العاصمة مسيرة ثمانية عشر يوما وكانت من مراكز تجارة الذهب ، ويبدو أنها كانت آخر أقاليم غانه ناحية الجنوب . وبالرغم من كثرة المسلمين فيها إلا أنها لم تكن خاصة بهم (٤٤) .

أما المدينة الثانية فهي يرسني Yaresna ، وتقع غرب غيارو ، وكانت خاصة بالمسلمين ، فقد ذكر البكري أن سكانها كانوا من المسلمين أما ماحولها فهم مشركون . وهي الأخرى اعتمدت على تجارة الذهب حيث عمل تجارها بتصدير التبر منها إلى المناطق الأخرى فى غانه (٤٥) .

وذكر البكري أيضا بلدة كوغه Kugha كمركز تجاري خاص بالمسلمين ، وتقع فيما بين غانه ومملكة كوكو . وذكرها كذلك ابن حوقل الذى قال إن بينها وبين مدينة غانه مسيرة شهر (٤٦) .

فى مملكة جاو «كوكو»

اختلفت الروايات حول تحديد نشوء هذه المملكة (٤٧) . أما اسمها كوكو Kawkaw ، فقد أشار بعض الكتاب المحدثين إلى الاختلاف فى اشتقاقه (٤٨) ، إلا أن الذى يهمنا هنا هو أن المصادر الأولية أوردت هذا الاسم لتعني تلك المملكة التي قامت فى المدينة التي عرفت بجاو Gao وتقع فى الجهة الشرقية من ثنية نهر النيجر (٤٩) .

وقد اقتصرت المملكة فى الفترة الأولى على هذه المدينة ، فالروايات تشير إلى أنه من المحتمل أن جاو تأسست كمحطة فى نهاية أحد الطرق التجارية القادمة من الصحراء فى القرن الثاني الهجري (٨م) . ثم استولى عليها شعب الصنغاي Songhay (٥٠) فى نفس القرن أو الذى يليه (٥١) ، وكون مملكة صغيرة قويت بمرور الوقت حتى أنها استطاعت أن تتحرر من هيمنة امبراطورية مالي عندما أقدمت هذه الأخيرة على مد نفوذها عليها طمعا فى ثرائها (٥٢) .

تميزت مدينة جاو بموقع فريد أكسبها أهمية تجارية عظيمة ، وجعل لها الريادة على المراكز التجارية الأخرى فى السودان الغربية لفترة من الزمن . فبالإضافة إلى وقوعها على نهر النيجر حيث تيسرت الملاحة البحرية ، كان هناك طريق تجاري بري قديم قادم من الشمال وتصل نهايته الجنوبية إلى هذه المدينة ، كما كان يقع قريبا منها مركزان داخليان على مسيرة بضعة أيام منها : تادمكة Tadmakka إلى الشمال ، وتاكدا Takedda إلى الشرق منها (٥٣) .

أما من ناحية علاقة مملكة جاو بالمغرب ، فقد ساعد وضعها كمركز تجاري حيوي فى اجتذاب كثير من التجار المسلمين إليها منذ بدأ هؤلاء فى الاتجاه إلى السودان الغربي (٥٤) .

ومن الأمثلة التي تدل على اهتمام التجار المسلمين بمملكة جاو ، قيام علاقات تجارية وثيقة بين هذه المملكة وبين تاهرت عاصمة الدولة الرستمية منذ أن تأسست هذه الأخيرة فى القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) . وكان تجار تاهرت ، ومن ضمنهم ممثلين وعملاء لبعض الأمراء الرستميين ، يفدون إلى جاو بقوافلهم التجارية الكبيرة (٥٥) .

ولم تقتصر أعمال التجار المسلمين ، على اختلاف فئاتهم ، على المهمات المؤقتة ، بل أقدم الكثير منهم على الاستقرار الدائم (٥٦) .

وقد اتخذ المسلمون لأنفسهم مكانا خاصا بهم قريبا من العاصمة فمن الوصف الذى أورده كل من المهلبي (ت ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) والبكري يتضح أن جاو كانت شبيهة بعاصمة مملكة غانه ، إذ تكونت هي الأخرى من قسمين أحدهما الجزء الخاص بالمسلمين الذى اتسع وتطور حتى أصبح مدينة ضاهت مدينة جاو الأصلية (٥٧) .

ويصف المهلبي مدينة المسلمين بأنها كانت تقع على الضفة الشرقية للنهر (النيجر) ، وأن بها أسواقا ومتاجر والمواصلات بينها وبين المناطق المجاورة متيسرة . أما مدينة الملك جاو الأصلية فيذكر أنها كانت تقع فى الجهة الغربية من النهر (٥٨) .

ويمكننا أن نستنتج من الإشارات القليلة التي أوردتها المصادر عن أوضاع المسلمين فى هذه المملكة أن حكامها لابد وأن يكونوا أدركوا قدرات التجار المسلمين فى مجال التجارة وتأثيرهم الإيجابي على مملكتهم فى نواحي كثيرة ، وإلا لما حظى أولئك التجار بالترحيب والقبول وكفل لهم الأمان فى المملكة ومارسوا تجارة واسعة فيها .

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نستنتج أيضا أن المسلمين لابد وأن يكونوا قد بلغوا فى هذه المملكة مكانة اجتماعية عالية كما كانت الحال بالنسبة لإخوانهم فى مملكة غانه . فتأثير المسلمين لم يقتصر على الناحية الاقتصادية ، بل امتد إلى قمة السلطة فى مملكة جاو فى ذلك الوقت . ولعل أوضح دليل على ذلك ماذكرته المصادر من أن ملكها تحول إلى الإسلام فى النصف الثاني من القرن الرابع الهجري (القرن العاشر الميلادي) ، وبنى مسجدا فى القسم الوثني من العاصمة يصلي فيه هو ومن أسلم من خاصته (٥٩) .

فى مملكة التكرور

أشار الكتاب المسلمون إلى وجود ثلاث ممالك سودانية فى منطقة وادي نهر السنغال غربي مملكة غانه وهي : التكرور Takrur ، وسلا Silla ، وصنغانا Sanghana (٦٠) . إلا أن المعلومات التي أوردوها عن هذه الممالك قليلة ، ونجد القصور واضحا فيما يخص نشاطات التجار المسلمين ومراكز تجمعاتهم واستقرارهم .

ويعلل البعض ذلك بأن هذه الممالك لم يوجد فيها الذهب أو وجد وإنما بكميات قليلة لذا لم يتجه إليها التجار بأعداد كبيرة بعكس مملكة غانه التي اشتهرت بذهبها ومملكة جاو التي تميزت بموقع جغرافي أكسبها أهمية تجارية مرموقة (٦١) .

ولكن المتتبع لما أوردته المصادر من معلومات عن مملكة التكرور لايجد مايشير بوجه الخصوص إلى أن التجار المتجهين إليها كانوا بأعداد ضئيلة ، وإن لم يكونوا بطبيعة الحال بنفس كثافة أولئك الذين اتجهوا إلى مملكة غانه أو مملكة جاو . والتعليل السابق ، قد ينطبق على مملكتي سلا وصنغانا ، أما بالنسبة لمملكة التكرور فيبدو أنه لايمثل الواقع ، فقلة الذهب الموجود فى أرضها لم تمنع من تمتعها بأهمية سياسية واقتصادية كما سنرى فى فقرات تالية . فلماذا لم يول الكتاب أوضاع التجار أهمية كبيرة عند حديثهم عن هذه المملكة ؟ إن الإجابة على هذا التساؤل يمكن أن تركز فى سببين : أولا : يلاحظ أن المصادر اهتمت بالدرجة الأولى بالحديث عن الإسلام فى التكرور ، حيث كانت أول مملكة سودانية تتحول بكاملها إلى الإسلام فقد اعتنق ملكها وارديابي Wardyabe الإسلام فى أواخر القرن الرابع الهجري (أواخر القرن العاشر الميلادي) وتحول بالتالي غالبية شعبه إلى الإسلام . كما أن ملكها عمل على تطبيق الشريعة الإسلامية فى حكم بلاده . ليس ذلك فحسب ، بل أسهمت هذه المملكة فى نشر الإسلام فى المنطقة وكانت فى ذلك الوقت على درجة من التحمس حتى أنها أعانت المرابطين فى بعض حروبهم فى الصحراء (٦٢) .

أما السبب الثاني : فيتمثل فى نوعية إسلام هذه المملكة ، فقد اتخذ ملكها الاتجاه الصحيح فلم يحاول الجمع بين تعاليم الإسلام والطقوس والتقاليد الوثنية كما حصل فى جهات أخرى من السودان . وقد يكون فى ذلك تفسير لما كان عليه ملك التكرور من تحمس لتطبيق شرائع الإسلام فى مملكته والعمل على نشر الدين الجديد فى المناطق المجاورة . وقد أثنى الكتاب عليه فى ذلك ، فالبكري يشير إلى أن أهل التكرور كانوا على الوثنية كغيرهم من ممالك السودان الأخرى حتى وليهم وارديابي فأسلم ونشر الإسلام بين قومه وأنار بصائرهم على أموره وشرائعه . أما عن جهوده فى نشر الإسلام فى مملكة سلا وما نتج عن ذلك فيقول : «وتسير من مدينة التكرور إلى مدينة سلا وهما مدينتان على شاطىء النيل (نهر السنغال) أيضا وأهلها مسلمون أسلموا على يد وارديابي رحمه الله . . وملك سلا يحارب كفارهم وليس بينه وبين أولهم إلا مسيرة يوم واحد» (٦٣) .

فالمصادر إذن لم تهتم بالحديث عن التجار إذ لم يعد ، كما يبدو ، هناك سبب للنظر إليهم كفئة منفصلة عن بقية الناس فلم يكن لهم حي مستقل عن العاصمة ، حيث أخذوا وضعهم الطبيعي فى هذه المملكة التي تحولت إلى الإسلام ، وصاروا كغيرهم من رعايا الملك ، الشيء الذى لم يحصل فى مملكة غانه الوثنية ومملكة جاو التي عندما اعتنق ملكها الإسلام بقيت الغالبية العظمى من رعاياه على الوثنية فى تلك الفترة ، فكان التجار المسلمون فى هاتين المملكتين يعيشون فى أحياء منفصلة مثلت مدنا خاصة بهم .

ومهما يكن من أمر ، فالمصادر لم تخل من إشارات هنا وهناك إلى ما اشتهرت به منطقة التكرور من صناعة وتعدين . وبالتالي ماترتب عليهما من منتوجات وتبادل تجاري سواء مع بلاد المغرب أو المناطق المجاورة . فقد تميزت بلاد التكرور بوجودها قرب بلدة أوليل Awlil ، المنجم الوحيد للملح فى السودان (٦٤) .

ونظرا لشدة حاجة سكان السودان إلى الملح (٦٥) فإنه مثل سلعة بالغة الأهمية لايمكن الاستغناء عنها ، وبالتالي غالية الثمن . ومن هنا اكتسبت أوليل أهميتها الاقتصادية خاصة وأنها كانت تقع على المحيط الأطلسي قريبا من مصب نهر السنغال (٦٦) .

وكان الملح ينقل من أوليل إلى مدينتي التكرور وسلا بواسطتين : عن طريق القوارب حيث استغل التجار قربها من مصب نهر السنغال ، وبواسطة القوافل عبر الصحراء . ومن التكرور وسلا يصدر الملح إلى مملكة غانه وغيرها من مناطق السودان (٦٧) .

ويمكننا الاستدلال من اهتمام الكتاب المسلمين ببلدة أوليل على أنها كانت تقع قريبا من طريق تجاري هام يربط المغرب الأقصى بهذه المنطقة من الساحل ، وبالتالي بمنطقة التكرور عموما . فقد ذكر ابن حوقل أن أوليل كانت آخر ماعرفه المسلمون ناحية الجنوب من ساحل البحر المحيط وهي بمحاذاة مدينة أودغشت الواقعة إلى الشرق منها ، وبينهما مسيرة شهر سفرا بالقوافل ، وبين أوليل وسجلماسه مسيرة أكثر من شهر (٦٨) ، كما أن أوليل بالرغم من موقعها بالنسبة للسودان الغربي ، إلا أنها كانت

تحت سيطرة قبيلة جداله أحد فروع صنهاجه (٦٩) .

وهذا كله يقودنا إلى الاعتقاد بأن أعداد كبيرة من التجار من بلاد المغرب خاصة من المغرب الأقصى ، قد اشتركت فى تجارة ملح أوليل ، وبالأخص فيما يتعلق بنقله بالقوافل إلى بلاد التكرور ثم توزيعه إلى الجهات الأخرى وذلك لقدراتهم الكبيرة فى توفير وسيلة النقل الصحراوية ورؤوس الأموال الكافية .

ويمكننا أن نتصور مدى ما أضفته مشاركة هؤلاء التجار على ذلك الجانب من تجارة مملكة التكرور من حيوية ورواج ، وبالتالي على التجارة فى هذه المملكة بشكل عام وعلى حركة التبادل التجاري بينها وبين بلاد المغرب بشكل خاص . فقد أسهمت تجارة الملح فى جلب كميات من الذهب إلى أسواقها حيث كان الملح يباع فى غانه وغيرها بالذهب بأسعار باهظة ، وربما بيع وزنا بوزن حسب كثرة التجار وقلتهم (٧٠) . وبذلك أصبحت عائدات الملح من الذهب تمثل مصدرا هاما لتوفير الكميات المطلوبة من هذا المعدن النفيس فى أسواق مملكة التكرور ، مما جعلها لاتتأثر كثيرا بندرته فى أرضها .

ومن ثم كان لتوافر الذهب فى أسواق هذه المملكة دور كبير فى تنشيط حركة التبادل التجاري بينها وبين بلاد المغرب ، مما جعل مهمة التجار من بلاد المغرب لاتقتصر على المشاركة فى تجارة ملح أوليل فقط ، إذ ساهموا فى توريد الصوف والنحاس والصدف وأنواع أخرى من منتوجات بلاد المغرب وواحات الصحراء إلى مملكة التكرور مقابل ماتوفره بدورها من ذهب ورقيق وشيء من منشوجاتها القطنية (٧١) .

أما الصناعة الرئيسة فى مملكة التكرور ، فكانت حياكة الأقمشة القطنية وذلك لوجود شجرة القطن . ولم يقتصر استهلاك الإنتاج على الأسواق المحلية حيث ساهم التجار فى تصدير كميات من المنسوجات إلى واحات الصحراء وبلاد المغرب . وقد اشتهرت حياكة نوع من الأزر تسمى الشكيات على مستوى السودان (٧٢) .

النتائج الفعلية لمجهودات التجار المسلمين

رأينا فى الصفحات السابقة من البحث كيف أن قدوم التجار المسلمين إلى منطقة شمال افريقيا ومشاركتهم فى التجارة عبر الصحراء ، واتجاه أعداد كبيرة منهم إلى الاستقرار الدائم فى ممالك السودان الغربي أدى بالتدريج إلى نشاط واتساع حركة التبادل التجاري بين هذه الممالك من جهة وبلاد المغرب من جهة أخرى . وأن المتتبع لإشارات المصادر عن أحوال التجارة عبر الصحراء وفى السودان الغربي فى هذه الفترة يلاحظ أن طور الرواج والازدهار الذى بلغ أوجه فيما بين القرنين الرابع والخامس الهجريين (العاشر والحادي عشر الميلاديين) ، تميز بالظواهر الثلاث التالية :

١ - ازدياد حجم التبادل التجاري فى السلع ، خاصة الذهب والرقيق والملح .

٢ - إدخال بعض الترتيبات والتنظيمات الجديدة التي أسهمت فى تسهيل أمور التبادل التجاري بين بلاد المغرب والسودان الغربي .

٣ – تطور وازدهار المراكز التجارية فى المنطقتين .

وهذه الظواهر تمثل فى الواقع النتائج الفعلية لما قام به التجار المسلمون من أعمال ومجهودات فى سبيل التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي .

ومن تناولنا لكل ظاهرة منها بشيء من التفصيل فى الفقرات التالية سيتبين لنا مدى التطور فى أنواع السلع وأحجام المتبادل منها ووضع الأسعار خاصة لتلك السلع المميزة كالملح والنحاس ، وأعداد القوافل وكذلك مدى نمو المراكز التجارية وازدياد ثرائها وبالأخص تلك التي كانت تقع على طرق تجارية هامة .

أولا – ازدياد حجم التبادل التجاري فى السلع خاصة الذهب والرقيق والملح

لاشك فى أن الذهب والرقيق كانا هما السلعتين الأساسيتين فى صادرات السودان الغربي إلى بلاد المغرب (٧٣) . ويأتي الذهب فى المرتبة الأولى من ناحية الأهمية والقيمة ، وهو ماتؤكده المصادر فى إشاراتها إلى ذهب السودان (٧٤) .

وبالرغم من أن الذهب وجد فى مناطق مختلفة من غرب افريقيا ، إلا أن مناجم المناطق الاستوائية الداخلية والواقعة جنوب مملكة غانه تعتبر المصدر الرئيس للذهب فى السودان . والجدير بالملاحظة أن مملكة غانه لم تسيطر على هذه المناطق مباشرة ولكنها ، فى الحقيقة ، سيطرت على مرور الذهب إلى الأسواق سيطرة محكمة . فكان هناك من التجار من يذهب إلى تلك المناطق ويحصلون على الذهب من السكان الأصليين غالبا عن طريق مايسمى بالتجارة الصامتة Silant Trade (٧٥) ، ثم يجلب إلى أسواق غانه ومراكزها التجارية حيث تتم عملية التبادل مع التجار الذين ينقلونه إلى شمال افريقيا ومن ثم إلى جهات أخرى (٧٦) .

ونجد نفس الظاهرة تماما بالنسبة للملح ، فمملكة غانه الوثنية لم تصل بنفوذها قط إلى مناجمه فى الصحراء بالرغم من حاجة شعوبها الماسة إليه ، إلا أنها تحكمت فى مروره إلى أسواقها وإلى المناطق الجنوبية حيث تزداد الحاجة إليه (٧٧) .

واستطاعت مملكة غانه الاستفادة من واقع الأهمية الاقتصادية العظيمة لهاتين السلعتين معتمدة على موقعها الذى جعل منها حلقة وصل بين المنطقتين ، فأهل الجنوب يمتلكون فى أرضهم الذهب وفى نفس الوقت هم فى حاجة إلى منتجات الشمال وعلى رأسها الملح ، وأهل الشمال فى ذات الوقت لاتقل حاجتهم ورغبتهم فى الذهب عن حاجة ورغبة السودانيين فى الملح .

وقد مارست مملكة غانه سيطرتها على تجارة سلعتي الذهب والملح الهامتين عن طريق نظام دقيق للضرائب أساسه الذهب ، فاستفادت بذلك فوائد مادية هائلة حيث فرضت حكومتها دينار ذهب على حمل الحمار من الملح الداخل من الشمال أو من التكرور إلى غانه . وديناران على الخارج منه إلى الجهات الأخرى من السودان ، وهذا يعني أن مملكة غانه كانت تجني ثلاثة دنانير ذهب عن كل حمل حمار من الملح يمر عبر أراضيها . كما فرضت أيضا خمسة مثاقيل من الذهب على حمل النحاس وعشرة

مثاقيل على الحمل من البضائع الأخرى كالقماش والزبيب والتمر المجفف والعطور وما شابه [٧٨] .

بالإضافة إلى ذلك يشير البكري إلى ما كان يقوم به ملك غانه من احتكار للنوع النادر من الذهب . وقد علل ذلك بأنه إجراء لتفادي كثرة الذهب بأيدي الناس فيضمن بذلك عدم تدني أسعاره حيث قال : «ولولا ذلك لكثر الذهب بأيدي الناس حتى يهون» [٧٩] . ولا يرى بعض الكتاب بأسا فيما ذهب إليه البكري من تفسير لهذا الإجراء من قبل الملك [٨٠] . إلا أن المتفحص لوضع تجارة الذهب فى ذلك الوقت لا يرى فى ذلك تعليلا مقنعا ، إذ لا يعتقد أن مجرد منع وصول النادر من الذهب إلى الأسواق سيحول دون تكاثر المتداول منه بأيدي الناس والدليل على ذلك أن المصادر ، ومن ضمنها كتابات البكري نفسه تحدثت عن وفرة عظيمة للذهب فى المراكز التجارية فى الجنوب والشمال حتى أن الذهب كان يبادل فى بعض أسواق السودان بالملح وزنا بوزن ، بل وأكثر من وزنه فى بعض المناطق ، وما إلى ذلك من الشواهد التي سنأتي على ذكرها فى فقرات تالية .

ولا يعتقد أيضا أن كميات الذهب التي تعود الملك الاحتفاظ بها كانت ستؤدي إلى انخفاض مؤثر وعلى نطاق واسع فى أسعاره لو أنها أنزلت إلى الأسواق ، وذلك لأن الطلب على ذهب السودان من قبل تجار بلاد المغرب وغيرهم كان عظيما [٨١] .

فماذا كان الهدف إذن ؟ هل كان ملك غانه ، باحتفاظه لنفسه بالقطع النادرة والغالية الثمن من ذهب السودان يهدف إلى تأكيد سيادة مملكته على سوق هذا المعدن النفيس ؟ أم أن ذلك كان نوع من الضرائب خاصة والمصادر لم تذكر أن غانه فرضت أي نوع من الضرائب على الذهب كسلعة تباع وتنقل خارج حدودها كما عملت بالنسبة للسلع الأخرى ؟ [٨٢] وعلى أية حال قد يكمن الجواب فى أحد الاحتمالين وقد يكون فيهما معا .

أما الرقيق فبالرغم من أنه كانت هناك مصادر أخرى يجلب منها إلى العالم الإسلامي ، إلا أن السودان مع حلول القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) أصبح يمثل مصدرا أساسيا للرقيق [٨٣] . فقد أشار الاصطخري (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) إلى كثرة الرقيق السودان وأنهم كانوا يجلبون من أعماق بلاد السودان مستنتجا ذلك من شدة سواد ألوانهم [٨٤] . ووصف البكري أهل أودغشت بالغنى ، فذكر أن من تجارهم من كان يملك ألفا من الرقيق [٨٥] .

وقد جنت مملكة غانه أرباحا كبيرة من تجارة الرقيق ، فكان فى عاصمتها سوقا رائجة لهذه السلعة وكانت تمون من المناطق الجنوبية حيث يوجد الزنوج البدائيون ، مما جعل غانه بذلك تمثل مصدرا مهما يجلب منه التجار الرقيق إلى أسواق بلاد المغرب [٨٦] .

كما برزت بلاد التكرور كمصدر آخر للرقيق حيث كان هناك نشاط واضح من قبل تجارها فى تصدير الرقيق إلى الشمال وعلى الأخص إلى أسواق المغرب الأقصى [٨٧] .

ويمثل الملح للتجارة بين السودان الغربي وبلاد المغرب سلعة لاتقل أهمية عن الذهب ، فالملح فى السودان الغربي ، بدون الصادر من الشمال ، يعتبر سلعة بالغة الندرة . ويمكن حصر أسباب هذه

الأهمية للملح فى الأمور التالية :

١ - بالإضافة إلى حاجة الناس الاعتيادية للملح فى مجالات الطعام وغيرها ، تشتد حاجة السودانيين إليه نظرا لظروف المناخ فى بلادهم .

٢ - وقوع مناجم الملح الرئيسة فى الصحراء .

٣ - ويمكن أن يضاف إلى ذلك سبب ثالث وهو أن ملح الصحراء تميز على الملح المستخرج من البحر بصلابته وجفافه ، الأمر الذي جعله قابلا للحمل لمسافات طويلة حتى داخل المناطق ذات الرطوبة العالية وهو على شكل ألواح بأحجام مناسبة للحمل ، فيستمر محتفظا بصلابته ، الأمر الذي يسهل تجزئته إلى قطع ذات أحجام مناسبة للبيع فى الأسواق (٨٨) .

لذلك فالملح المستخرج من بلدة أوليل قرب مصب نهر السنغال لايمكن أن ينافس ملح الصحراء خاصة فى المناطق الداخلية ، حيث المناجم الرئيسة للذهب والتي يشتد الطلب فيها على الملح (٨٩) هذا بالإضافة إلى أن ملح أوليل لايكفي أصلا لسد حاجة السودان الغربي من هذه السلعة .

ومما يدلل على قلة الملح وشدة الطلب عليه قبل اتساع التجارة عبر الصحراء ماذكر من أن الواحد من الرقيق كان يباع مقابل لوح صغير من الملح لايعدو فى حجمه حجم رجله (٩٠) . ويعبر ابن حوقل عن مدى أهمية الملح للسودانيين بقوله : «وحاجتهم (أي ملوك السودان) إلى ملوك أودغشت ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية (بلاد) الإسلام فإنه لاقوام لهم إلا به» (٩١) .

وإن المتفحص لما أوردته المصادر المعاصرة من معلومات عن تجارة الذهب والملح ، ليجد فيها أقوى الشواهد الدالة على أن حجم المتبادل منهما بين بلاد المغرب والسودان الغربي زاد زيادة عظيمة عما كان عليه فى الفترات السابقة ، وذلك نتيجة للدور الذى اضطلع به التجار المسلمون فى التجارة بين المنطقتين .

ولنبدأ بأسواق السودان الغربي ، وهي مصدر الذهب لنرى أن التاجر فى أسواق غانه ، وكما سبقت الإشارة إليه ، كان على استعداد لدفع ثلاثة دنانير ذهب على كل حمل حمار من الملح يعبر أراضي غانه . هذا بالإضافة إلى ضريبة النحاس وضريبة البضائع الأخرى ، وكلها كانت تجبى بالذهب ولنرى أيضا أن الملح فى بعض المناطق كان يبادل بالذهب بنفس الوزن (٩٢) ، بل ربما بيع بوزنين أو أكثر على قدر كثرة التجار وقلتهم حسب ما أورده أبو حامد الغرناطي فى حديثه عن غانه (٩٣) .

وبالرغم من قلة الذهب فى أرض التكرور ، إلا أن تجارها كانوا يحصلون على كميات كبيرة منه فى أسواق مملكة غانه مقابل بضائعهم وعلى رأسها الملح المجلوب من أوليل ، فتوفر بذلك الذهب فى أسواق مملكة التكرور نفسها إلى درجة جعلته فى مقدمة السلع التي كانت تقدمها هذه المملكة مقابل ما تحتاجه من منتجات بلاد المغرب وأهمها النحاس والصوف (٩٤) .

ويتحدث البكري عن أودغشت فيذكر أن وسيلة التعامل فى البيع والشراء كان الذهب وذلك على هيئة تبر . كما وصف أهل هذه المدينة بأنهم كانوا أصحاب نعم وأموال جليلة (٩٥) .

أما أهل تادمكه وهي أحد المراكز التجارية القريبة من مملكة جاو ، فقد كانوا يتبايعون بدنانير ذهب خالص تسمى الصلع لانها غير مختومة (٩٦) وقد قابل هذه الكثرة فى كميات الذهب الصادر من السودان الغربي وفرة فى كميات الملح الواردة من الشمال ، فكان من نتيجة ذلك أن انخفض سعره . فابن حوقل الذى عاش فى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) يشير إلى أن أسعار الملح كانت تتراوح فيما بين المائتين والثلاثمائة دينار (٩٧) . بدل أن كان يباع بأكثر من ذلك أو بمثل وزنه ذهبا فى بعض المناطق . ثم إن الواحد من الرقيق صار يباع بحمل جمل من الملح بدل أن كان ثمنه لايتجاوز قطعة صغيرة منه (٩٨) . بل نزل سعر الملح فيما بعد إلى أقل من ذلك بكثير (٩٩) .

ولاشك أن الملح كان يشغل حيزا كبيرا من حمولة القوافل التي كانت تعبر الصحراء ، نظرا لكبر حجم ألواحه وثقل وزنها . لهذا فالقوافل فى عودتها من السودان الغربي تكون أحمالها أقل مما كانت عليه فى ذهابها إلى هناك ، فكان فى بعض الأوقات ، على سبيل المثال ، الثلاثون حملا فى القافلة المتجهة إلى السودان الغربي يقابلها ثلاثة أحمال من التبر وسلع السودان الأخرى عند عودة القافلة إلى بلاد المغرب (١٠٠) .

وفى الجهة المقابلة ، ونقصد الضفة الشمالية من الصحراء ، مثلت مدينة القيروان مركزا تجاريا مرموقا . يقول عنها ابن حوقل أنها كانت من أعظم مدن المغرب وأكثرها تجرا وأموالا (١٠١) بفضل موقعها كنقطة التقاء للقوافل التجارية من المشرق والمغرب مع القوافل التي كانت تعبر الصحراء للإتجار مع السودان .

ثم هناك مدينة سجلماسه والتي امتازت بأسواق غنية بالذهب إلى درجة جعلت الكتاب المسلمين يكتبون عنها باستغراب ، ومن أولئك البكري الذى قال عن أهل سجلماسه : «ومن الغرائب عندهم أن الذهب جزاف عدد بلا وزن والكراث يتبايعونه وزنا بلا عدد» (١٠٢) أما ابن حوقل فقد وصف ثراء أهل سجلماسه وعظم قوافلهم وتجاراتهم بقوله : «ويقارب القيروان سجلماسه فى صحة الهواء ومجاورة البيداء مع تجارة غير منقطعة منها إلى بلد السودان . . وأرباح متوافرة ورفاق متقاطرة» (١٠٣) .

وقد أكد ابن حوقل ما ذهب إليه فى وصفه لأهل سجلماسه والقوافل التي كانت تعبر الصحراء منها وإليها ، حينما روى قصة مشاهدته لصك مالي بمبلغ اثنين وأربعين ألف دينار ذهب، كدين لأحد تجار سجلماسه على تاجر آخر بمدينة أودغشت (١٠٤) . ولاشك أن ما سجله ابن حوقل عن ذلك الصك ، كشخص معاصر لتلك الفترة وكشاهد عيان ، يعتبر بحق وثيقة ذات دلالة واضحة على الرواج الواسع الذي كانت تشهده التجارة بين بلاد المغرب والسودان الغربي وعلى رأسها السلعتان الأساسيتان الذهب والملح . مما يدعم ماقلناه فى هذا الصدد فى الفقرات السابقة .

والواضح أن المبلغ الذى أشار إليه هذا الصك ضخم قياسا على أي مستوى كان ، فالمبلغ قد يعادل الآن أكثر من نصف مليون دولار على أساس سعر الذهب، فى الوقت الحاضر (١٠٥) . فإذا بدا المبلغ فى الوقت الحاضر بهذه الضخامة ، فإنه لابد وأن يبدو أكثر ضخامة فى ذلك الوقت كمحصلة

عملية تجارية بين تاجرين أخذا فى الاعتبار حجم وسائل النقل والحفظ والمسافات وغير ذلك من ظروف ذلك الزمن التى لها تأثيرها على التعامل التجاري . لهذا لا نستغرب أن ينظر إلى حجم المبلغ بدهشة وتعجب ليس من ابن حوقل فحسب ، بل ممن سمعوا منه القصة من أهل المشرق . يقول ابن حوقل : «وما رأيت ولا سمعت بالمشرق لهذه الحكاية شبها ولا نظيرا ، ولقد حكيتها بالعراق وفارس وخراسان فاستطرفت» (١٠٦) .

سلع أخـــرى : ولقد سارت التجارة فى السلع الأخرى كالعاج والنحاس والمنسوجات وما إلى ذلك جنبا إلى جنب مع تجارة الذهب والملح والرقيق ، حيث كان السودان الغربي يتلقى من بلاد المغرب والصحراء سلعا أخرى إلى جانب الملح ويصدر أيضا سلعا أخرى إلى جانب ذهبه ورقيقه .

ونشير فيما يلي إلى أهم تلك السلع .

كان العاج من السلع التي استحوذت على اهتمام التجار ، لذا فهو يعتبر من السلع التي كانت لها أهميتها فى صادرات السودان الغربي إلى الشمال ، وقد ازداد حجم هذه السلعة مع التوسع فى تجارة الذهب واشتهر العاج الافريقي ووصل إلى مناطق كثيرة من الشرق بفضل التجار المسلمين (١٠٧) .

نقل المالكي فى رياض النفوس قصة الرجل الذى تورع عن أخذ إرث زاد عن ألف دينار تركه له والده معللاً ذلك بقوله : إن ذلك المال جمع من المتاجرة فى العاج وأنه لم يكن ليأخذه وقد تكلم العلماء ضد هذا النوع من المتاجرة (١٠٨) . وبالإضافة إلى ماتشير إليه هذه القصة من أن العاج كان سلعة رائجة ، قد نجد فيها مؤشرا أيضا إلى غلاء ثمنها ، إذ يبدو أن فحش الأسعار كان من بين الأسباب التي جعلت البعض ينظر إلى المتاجرة فى العاج نظرة الشك (١٠٩) .

ومن السلع التي صدرها السودان الغربي إلى بلاد المغرب أيضا الجلود والصمغ والعسل (١١٠) والشب (١١١) وخشب الأبنوس (١١٢) .

وبالنسبة للسلع الأخرى التي صدرتها بلاد المغرب إلى السودان الغربي ، فإن هناك ثلاث سلع تأتي فى المقدمة وهي الصدف أو الودع Cowries ، والخرز Beads ، والنحاس .

ذكر البكري عندما تحدث عن كوغه ، إحدى المدن التابعة لمملكة غانه ، أن أهم السلع التي اعتاد التجار حملها إلى هذه المدينة الودع ، حيث وجد فيه التجار سلعة رائجة وذلك لكثرة إقبال الناس عليه هناك (١١٣) .

ويستخدم الودع فى أغراض اجتماعية متعددة مثل اتخاذه للزينة أو تمائم ورموز يعتقد السودانيون خاصة الوثنيون منهم فى دلالاتها المعنوية والروحية (١١٤) .

ولم تكن منطقة بلاد المغرب هى المصدر الأساسي للودع ، بل إنه كان يجلب إليها من مناطق أخرى ثم يعاد تصديره إلى السودان الغربي (١١٥) .

ويستخدم الخرز فى أدوات الحلية والزينة وكانت مدينة أغمات الواقعة إلى الجنوب الغربي من سجلماسه تصدر الخرز المصنوع من الزجاج إلى السودان الغربي (١١٦) . واشتهرت مدينة سبته بصناعة

الخرز من المرجان وكان يصدر إلى السودان الغربي ، وعلى الأخص إلى مملكة غانه لكثرة الطلب عليه هناك (١١٧) .

وكان النحاس المصنع يمثل سلعة ذات أهمية كبيرة ضمن صادرات بلاد المغرب إلى السودان الغربي . وقد عمل التجار المسلمون على نقله إلى أسواق مدينة أودغشت ومدينة كوغه ، وكذلك إلى المناطق الداخلية من السودان الغربي حيث يبادل هناك مع سلع أخرى بالذهب عن طريق التجارة الصامتة (١١٨) .

وتشير المصادر إلى أن القوافل التجارية المتجهة من مدينة أغمات إلى السودان الغربي كانت تحمل كميات كبيرة من النحاس الملون ، وقد كان من الاستخدامات المهمة له عمل أنواع من الحلي (١١٩) . ويبدو أنه كان للون النحاس ، خاصة الأحمر منه ، دور في رواجه بين السودانيين (١٢٠) .

وتجدر الإشارة إلى أن النحاس استخدم في غانه وجهات أخرى من السودان الغربي كعملة ، فكان يصنع على شكل حلق مناسبة للتداول (١٢١) .

وقد سبق وأشرنا إلى أن حكومة غانه كانت تفرض خمسة مثاقيل من الذهب ضريبة على حمل الحمار من النحاس ، ولاشك في أن مقدار هذه الضريبة دلالة قوية على أهمية النحاس بالنسبة للسودانيين وبالتالي لتجارتهم مع بلاد المغرب .

ومن الأماكن التي اشتهرت كمعدن للنحاس بلدة تيحمامين وتقع في منتصف الطريق بين مدينة أغمات ووادي درعه جنوب المغرب الأقصى (١٢٢) .

واستورد السودان الغربي من بلاد المغرب كذلك التمر المجفف ، والذى كان مصدره الرئيس مدينة سجلماسه ، والزبيب والقمح ، وقد علق البكري على هذه السلع بقوله إن بعد المسافة بين المنطقتين لم يمنع من جلبها إلى السودان وأن القنطار من كل سلعة من هذه السلع كان يباع في أكثر الأوقات بستة مثاقيل ذهب ، إلا أن البكري لم يوضح هل كانت هذه السلع في حالة غلاء أم رخص مع تلك الأسعار (١٢٣) .

كما استورد السودان الغربي أيضا الفضة . وقد أشارت المصادر إلى وجود بعض المناجم للفضة في بلاد المغرب ، منها منجم كان يوجد بمدينة درعه الواقعة جنوب المغرب الأقصى (١٢٤) . وآخر بموضع يقال له تازرارت ويقع إلى الغرب من جبل درن القريب من بلاد السوس . وقد وصف البكري هذا المنجم الأخير بأنه كان غزير الإنتاج (١٢٥) .

واستورد السودان الغربي بالإضافة إلى السلع السابقة القماش وبعض المنسوجات القطنية (١٢٦) والصوفية (١٢٧) والأدوات المصنوعة من الحديد وبعض الأحجار الكريمة والعطور (١٢٨) .

ثانيا – إدخال بعض الترتيبات والتنظيمات الجديدة التي أسهمت في تسهيل أمور التبادل التجاري بين المنطقتين

لقد كان استمرار التجارة بين المنطقتين ورواجها مطلبا ملحا سواء للتجار أنفسهم أو للسلطات

فى مختلف المناطق التي كانت تمر بها القوافل . وقد أدت الحاجة فى ذلك مع مرور الوقت إلى ظهور تنظيمات وترتيبات منها ماهدف إلى تسهيل المعاملات التجارية ونقل السلع من منطقة إلى أخرى ، ومنها ماهدف إلى ضمان أمن وسلامة القوافل أثناء تنقلها بين المناطق على اختلاف قبائلها وشعوبها .

فبالنسبة لتصدير السلع إلى السودان ، فقد وجدت طريقة التوكيل المعروفة والتي يقوم بالمهمة فيها من يمكن تسميته بالوكيل التجاري والذى قد يكون وكيلا لتاجر واحد أو لأكثر ، وإلى جانب هذه الطريقة وجدت صيغة أخرى مكنت أصحاب الصنائع الصغيرة من تصدير إنتاجهم ضمن القوافل التجارية . فقد كان بإمكان الصانع إما أن يقوم بدفع سلعته إلى أحد التجار ليبيعها له مقابل جزء من الربح أو أن يكلف عبدا أو أجيرا ليذهب ضمن القافلة (١٢٩) . ولعلنا نجد فى الرواية التالية مثالا واضحا على هذا الأسلوب فى تصدير السلع إلى السودان : حدث سكن ، وكان أحد الصاغة بالقيروان وقال إنه كان يصنع سلاسل من نحاس كالتي تستخدم فى لجم الدواب ويطليها بماء الذهب ويبعث بها لتباع فى بلاد السودان . ولما أراد أن يعلم مدى شرعية مايفعله كان الذى أفتاه بأن ذلك غش فقيه القيروان عبدالله بن فروخ الفارسي المتوفي سنة ١٧٦هـ/٧٩٢م (١٣٠) .

أيضا كان هناك من التجار وغيرهم ، سواء من بلاد المغرب أو السودان الغربي من اشترك فى التجارة عبر الصحراء عن طريق مايسمى بالقراض أو المقارضة ، حيث يعهد المالك بماله لطرف آخر ليقوم بالاتجار فيه على أن يكون الربح بينهما حسب مايشترطان والخسارة من رأس المال (١٣١) . ونجد مثالا واضحا لهذا الأسلوب فيما أورده الونشريسي فى كتابه «المعيار المعرب» عن فتوى للفقيه ابن القابسي القيرواني (١٣٢) تتعلق بالاتجار عبر الصحراء ، إذ كانت تلك الفتوى بخصوص رجل دفع إلى عامل قراضا يمضي به إلى تادمكه فى السودان الغربي ، فسافر إليها ومضى منها إلى غانه وأودغشت واستمر غيابه منذ أن أخذ المال ليتاجر فيه أحد عشر عاما (١٣٣) ، فكان هذا التأخير هو الذى دفع صاحب المال للاستفسار هل من حقه شرعا المطالبة بتعويضه عن ماله من أملاك ذلك العامل عندما بيعت لسداد حقوق مالية كانت عليه لغرماء آخرين .

أما فى السودان فنجد لدى الإدريسي إشارة واضحة عن ذلك الأسلوب حيث ذكر أنه كان هناك من الأغنياء وعلية القوم من أهل مملكة جاو من كانوا يخالطون التجار ويساهمون معهم فى تجاراتهم عن طريق المقارضة (١٣٤) .

كما مارس التجار كتابة الصكوك المالية لما فى ذلك من تسهيل على المتعاملين ، نظرا لما بين المراكز التجارية من مسافات طويلة . حيث كان بإمكان الدائن أن يستلم ماله فى مركز آخر من المدين أو وكيله ، فلا يضطر إلى حمله معه . ويمكننا أن نجد فيما ذكره ابن حوقل عن الصك المالي الذى رآه مع الدائن فى مدينة سجلماسه مثالا حيا لهذه الظاهرة ، فحسب رواية ابن حوقل كان الدائن أحد تجار سجلماسه المشتغلين بالتجارة مع السودان والمدين أيضا من أهل سجلماسه ، إلا أنه كان مقيما فى مدينة أودغشت . فالصك إذن كتب فى أودغشت وقبض المبلغ فى سجلماسه (١٣٥) .

وقد استشهد آدم متز بهذه النصة بالإضافة إلى أمثلة أخرى فى توضيحه لتطور المعاملات التجارية عند المسلمين فى القرن الرابع الهجري نظرا لضخامة المعاملات وعلق فى حديثه عن ذلك قائلا : إن الصك فى العراق فى تلك الفترة أشبه ما يكون (بالشيك) الرسمي فى الوقت الحاضر (١٣٦) .

أما بالنسبة لأمن القوافل فإن من الأمور التي استجدت نتيجة مجيء المسلمين وازدهار التجارة عبر الصحراء ، اهتمام القبائل القاطنة قريبا من الطرق التجارية بأمن تلك الطرق ومحاولتها تنظيم ذلك . فكان هناك من القبائل من اختص بمهنة خفارة القوافل التجارية مقابل مبالغ من المال محددة (١٣٧) ومنها من كان يفرض ضرائب أو مكوس على القوافل مقابل تأمين مرورها عبر أراضيها . وهناك من القبائل أيضا من عمل كوسيط لنقل البضائع عبر المراكز التجارية (١٣٨) وفى بعض المناطق تلجأ القوافل التجارية إلى استئجار عملاء ، خاصة من الجماعات القوية ليتولوا حمايتها وتأمين مرورها عبر منطقتهم ، وعند الوصول إلى منطقة أخرى يتم استئجار عملاء آخرين وهكذا (١٣٩) .

ثالثا – تطور وازدهار المراكز التجارية فى المنطقتين

لقد كانت هناك محطات ومراكز تجارية على الطرق القديمة التي كانت تربط شمال الصحراء بجنوبها ، وإنه من الطبيعي أن تنمو هذه المراكز وتزدهر نتيجة اتساع الحركة التجارية بين المنطقتين وتضاعف حجمها . ففي الضفة الشمالية للصحراء نجد المراكز التالية :

سجلماسة Sijilmasa : وتقع فى منطقة تافللت جنوب المغرب الأقصى . ولقد كان من أهم العوامل التى أدت إلى تطورها من مجرد موضع براح يقيم فيه بربر تلك النواحي سوقا سنويا إلى قرية صغيرة ثم إلى مدينة كبيرة وغنية وقوعها على طريق تجاري قديم تسلكه القوافل ويربط بلاد السودان ومنطقة تافللت بمدن الشمال (١٤٠) والذى أصبح من أهم طرق القوافل المتجهة إلى السودان الغربي بعد أن صارت القوافل التجارية المتجهة من مصر إلى غانه تسير عبر بلاد المغرب قاصدة مدينة سجلماسه لتنطلق منها إلى السودان الغربي بدل أن كانت تسير من مصر إلى غانه مباشرة (١٤١) . فصارت سجلماسه بذلك تمثل آخر مرحلة للقوافل القادمة من الشمال فى اتجاه الطريق الصحراوي الطويل وأول مركز تجاري كبير فى بلاد المغرب يستقبل سلع السودان فاعتبرت بذلك بوابة التبر (١٤٢) .

ويلاحظ بوضوح تام أن المصادر تربط ثراء سجلماسه وازدهارها كمركز تجاري بالتجارة مع السودان ، فابن حوقل ، الذى زار هذه المدينة فى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) ذكر أن منطقة سجلماسه كانت تساهم فى خزينة الدولة بحوالي أربعمائة ألف دينار كضريبة على القوافل المتجهة إلى السودان وعلى السلع المباعة فى أسواقها ، وكذلك الخراج وما إلى ذلك ويؤكد ابن حوقل ضخامة المبلغ عندما يشير إلى أنه كان يختص فقط بمنطقة سجلماسه وأن المبلغ فى بعض الأوقات كان يمثل نصف مايرد على خزينة الدولة ، حيث إن جباية بلاد المغرب بكاملها ربما زادت قليلا عن الثمانمائة ألف دينار وربما نقصت كثيرا عن هذا المبلغ (١٤٣) .

وعندما تحدث ياقوت الحموي عن سجلماسه أشار إلى أن أهلها كانوا من أغنى الناس وأكثرهم أموالا ، وعلل ذلك بوقوع المدينة على طريق الذاهب إلى غانه (١٤٤) .

تاهــرت Tahart : لقد أصبحت هذه المدينة ، التي تقع إلى الجنوب من تلمسان فى المغرب الأوسط ، بعد إنشائها كعاصمة لدولة بني رستم ، مركزا تجاريا ذا أهمية للتجارة مع السودان الغربي . وكان ارتباطها التجاري القوي مع مملكة جاو عن طريق يمر بمدينتي وارجلان وتادمكه ، وهو الطريق الذى فى اتجاهه إلى الشمال يصل إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط ، كما كان لها اتصال تجاري بجهات أخرى من السودان الغربي عن طريق سجلماسه وأودغشت (١٤٥) .

ولا أدل على أهمية التجارة مع السودان لهذه المدينة من اهتمام أمرائها بأمرها بل واشتراك بعضهم فيها ، فقد كان عبدالوهاب تاجرا فى أيام أبيه عبدالرحمن بن رستم (١٤٥ – ١٧١هـ) ، وكانت قوافله تتردد على مملكة جاو . واشتغل أفلح بن عبدالوهاب بالتجارة مع السودان قبل توليه الحكم ، وأثناء ولايته بعث بأحد كبار تجار تاهرت كمبعوث للدولة الرستمية إلى أحد ملوك السودان الغربي . وكذلك اشتغل ابنه محمد بن أفلح فى هذه التجارة . وعلى العموم فقد رحبت دولتهم بالتجار السودانيين وأحسنت معاملتهم وقدمت لهم التسهيلات التجارية ، كما أن ممالك السودان عاملت بدورها تجار تاهرت بالمثل فرحبت بهم وكفلت لهم الأمان (١٤٦) .

وارجــلان Wargalan : وتقع فى منطقة الزاب على الطريق التجاري الذي يصل المغرب الأدنى «افريقية» بتادمكه ومنطقة ثنية نهر النيجر حيث تقع مملكة جاو . كما كان هناك طريق آخر يصلها بسجلماسه مارا بتاهرت (١٤٧) ، فكانت وارجلان بذلك على اتصال بالعديد من المراكز التجارية الهامة فى المنطقة : القيروان فى المغرب الأدنى وتاهرت فى المغرب الأوسط وسجلماسه فى المغرب الأقصى وتادمكه وجاو فى السودان .

وقد اعتمد تطور هذه المدينة واتساع الحركة التجارية فيها على موقعها واتصالها التجاري بالمدن المذكورة ، خاصة بعد أن تدهورت تاهرت فى أواخر القرن الثالث الهجري (أوائل القرن العاشر الميلادي) (١٤٨) .

تحدث الإدريسي عن وارجلان واصفا بعض جوانب الحياة الاقتصادية فيها ، فذكر أن قبائلها كانت غنية وتجارها عرفوا بالثراء ، حيث كان لهم نشاط بارز فى عملية شراء ذهب غانه والمتاجرة به فى الأسواق التجارية فى بلاد المغرب ، كما كانوا على رأس القائمين بتصدير التمر الجاف من سجلماسه ومنطقة الزاب إلى السودان الغربي (١٤٩) .

أغمــــات Aghmat : وتقع قرب منطقة وادي درعه ، وهو الوادي الذى يتجمع فيه التجار منها ومن سجلماسه ومن المناطق القريبة منهما لينطلقوا بقوافلهم عبر الطريق التجاري المتجه إلى أودغشت (١٥٠) .

وأغمات من المدن التي عظمت أسواقها وانتفع أهلها انتفاعا كبيرا بسبب موقعها الذى مكنها من الاشتراك فى التجارة مع السودان . فقد أشار إليها ابن حوقل كأحد المراكز التجارية الهامة فى منطقة سجلماسه والتي كانت تساهم بنصيب وافر فى جباية المغرب عن طريق ما كانت تفرضه الدولة من ضرائب على القوافل المتجهة إلى السودان والخراج وغير ذلك من الدخول (١٥١) . كما أورد الإدريسي بعض التفصيل عن تجارتها مع السودان فقال إن من أهل أغمات تجار كانوا يملكون أموالا كثيرة ، فهم يذهبون إلى السودان بالقوافل الكبيرة المحملة بالنحاس والأكسية من ثياب الصوف والعمائم والمآزر وأنواع من الأصداف والزجاج والأحجار الكريمة والعطور وبعض الآلات المصنوعة من الحديد ، وربما سير بعضهم فى القافلة الواحدة ماقد يصل إلى مائة وثمانين من الجمال المحملة بالبضائع (١٥٢) .

وفى السودان الغربي نجد المراكز التجارية التالية :

كومبي صالح Kumbi-Salih : لقد سبق وأشرنا فى حديثنا عن مملكة غانه كيف أن الحي الذى تجمع فيه التجار المسلمون قرب عاصمتها تحول إلى مدينة خاصة بالمسلمين مثلت الشطر الأهم من العاصمة ، واستشهدنا فى ذلك بوصف البكري لها بأنها كانت مدينة كبيرة احتوت على اثنى عشر مسجدا .

ومع مرور الوقت تطورت هذه المدينة حتى أصبحت ، حسب ماقاله الإدريسي عنها ، أعظم مدينة فى السودان الغربي مساحة وسكانا وتجارة ، وقد كان كبار التجار يأتون إليها من مختلف المناطق للالتقاء بعملائهم (١٥٣) .

وقد أيدت التنقيبات الحديثة ما أورده البكري والإدريسي وغيرهما من الكتاب المسلمين عن هذه المدينة ، حيث كشفت الحفريات التي قام بها موني Mauny وزميلاه فى الموقع المسمى كومبي صالح عن وجود مدينة تغطي من المساحة ميل مربع تقريبا يتكون قسم منها من مبان ضخمة وفخمة فى نفس الوقت مبنية بالحجارة وبعضها مكون من طابقين ، ويرجح أن الطابق السفلي كان يستخدم كمخزن للبضائع . ومن المحتمل أن هذا الجزء من المدينة كان يخص كبار التجار من شمال افريقيا . وإلى جانب ذلك كانت هناك آثار المساجد ومنها مسجد كبير قد يكون هو المسجد الجامع للمدينة (١٥٤) .

كما عثر المنقبون على موجودات كثيرة منها حراب وسكاكين ومسامير وأدوات زراعية ومقص دقيق الصنع وعدد من الحجارة منقوش عليها آيات قرآنية (١٥٥) .

ولاشك أن مدينة كومبي صالح بهذا تعطي مثالا على ما كان لمجيء التجار المسلمين من دور فى تطور وازدهار المراكز التجارية هناك فى السودان الغربي .

جـــاو Gao : لقد سبقت الإشارة إلى أن اتصال جاو ببلاد المغرب كان من خلال الطريق التجاري الذى يربط ثنية نهر النيجر بالمغرب الأدنى عبر مدينتي تادمكه وورجلان وبالمغرب الأوسط عبر مدينة تاهرت .

ومما ذكرناه سابقا عن هذه المدينة ، اتضح أنها كانت تشبه تماما عاصمة مملكة غانه ، حيث

كانت تنقسم إلى قسمين : القسم الخاص بالمسلمين والقسم الآخر وهو مدينة الملك أو جاو القديمة . كما اتضح معنا كيف أن الجزء الخاص بالمسلمين اتسع وتطور إلى أن أصبح مدينة فاقت جاو القديمة فى العمران والنشاط التجاري (١٥٦) . وقد اكتسبت جاو بذلك شهرة على نطاق واسع فى بلاد السودان كما أشار إلى ذلك الإدريسي فى وصفه لها فيما بعد (١٥٧) .

وتبرز مدينة جاو كمثال آخر لتأكيد أثر التجار المسلمين فى تطور المراكز التجارية فى السودان الغربي .

أودغشت Awdaghast : وتقع فى الطرف الجنوبي من الصحراء إلى الشمال الغربي من غانه وبينهما مسيرة حوالي خمسة عشر يوما ، أما المسافة بينها وبين مدينة سجلماسه ، فإن القوافل تقطعها فى مسيرة شهرين تقريبا (١٥٨) .

وأودغشت لم تكن مجرد محطة استراحة للقوافل القادمة من الشمال فقد مثلت النهاية الجنوبية لواحد من أهم الطرق التجارية فى تلك الفترة ألا وهو الطريق القادم من سجلماسه مرورا بوادي درعه ليصل ، بعد رحلة شاقة وطويلة عبر الصحراء ، إلى أودغشت كأول محطة له فى بلاد السودان . لذلك قامت فيها حركة تبادل تجاري عظيمة حيث شهدت أسواقها مبادلة البضائع المختلفة من الشمال ومن الجنوب (١٥٩) .

وقد وصف البكري مدينة أودغشت بأنها كبيرة حسنة المباني ومساجدها كثيرة وقال عن أهلها أنهم كانوا أصحاب نعم وأموال جليلة . ويؤكد البكري ذلك بحديثه عن تجارتها وأسواقها حيث قال عن تجارتها : «ويتجهز إلى أودغشت بالنحاس المصنوع وبثياب مصبغة . . . ويجلب إليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام على بعد . ويجلب منها العنبر المخلوق الجيد لقرب البحر المحيط منهم والذهب الابريز الخالص خيوطا مفتوله ، وذهب أودغشت أجود من ذهب أهل الأرض وأصحه» (١٦٠) أما وصفه لأسواقها فإنه يؤكد ماسبق وقلناه عن كثافة النشاط التجاري فيها ، يقول البكري «وسوقها عامرة الدهر كله لايسمع الرجل فيها كلام جليسه لكثرة جمعه وضوضاء أهله» (١٦١) .

ومدينة أودغشت بهذا الوضع الاقتصادي شابهت مدينة سجلماسه ، فموضع أودغشت الحيوي أدى إلى تطورها وازدهارها كمركز تجاري هام حيث كونت حلقة وصل بين السودان الغربي وبلاد المغرب فى تلك الناحية ، وهو نفس الدور الذى لعبته سجلماسه بالنسبة للجهة الشمالية من الصحراء (١٦٢) .

تادمكه Tadmakka : وهي شبيهه بمدينة أودغشت . إذ إنها هي الأخرى لم تكن مجرد محطة استراحة للقوافل القادمة من الشمال ، بل كانت تتم فيها مبادلة السلع المجلوبة من المغرب الأدنى بسلع منطقة ثنية النيجر حيث كانت هذه المدينة تمثل أهم مركز تجاري للقوافل القادمة من القيروان وورجلان قبل وصولها إلى مملكة جاو .

وقد وصف البكري تادمكه على أنها مدينة كبيرة وأنها أحسن بناء من مدينتي غانه وجاو القديمة . كما ذكر أن أهلها كانوا يتعاملون بالذهب الخالص (١٦٣) .



المراكز التجارية على الطريقين التجاريين : الشرقي والذى يربط المغرب الأدنى بثنية النيجر والغربي والذى يربط المغرب الأقصى بغانه .

المصدر : J.Fage, *An Atlas of African History*, p.17

التعليقـــات

(١) **H.R. Jarrett**, *An Outline Geography of Africa*, London: Methuen Educational, Ltd., 1971, pp.87-88, 138 .

(٢) انظر على سبيل المثال **عبد الرحمن بن خلدون** ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر . . . بيروت : مؤسسة الأعلمى للمطبوعات ، ١٩٧١ ، جـ٦ ، ص ٩٩ . ويقابل هذا التقسيم فى الوقت الحاضر : تونس والجزائر والمملكة المغربية ، ولكن ليس بالضرورة حسب الحدود لهذه الدول . ولتفصيل أكثر عن تسمية المغـــرب

وأقسامه ، انظر **سعد زغلول عبد الحميد** ،تاريخ المغرب العربي،الاسكندرية : منشأة المعارف ، ١٩٧٩ ، جـ ١ ، ص ص ٦١ -- ٦٩ ، **أحمد مختار العبادي** ، فى تاريخ المغرب والأندلس ، بيروت : دار النهضة العربية ، ١٩٧٨ ، ص ص ١٠ – ١٦ .

(٣) *Encyclopaedia of Isam,* Leyden, 1934, vol. IV,p.495 .

(٤) *See* **E.W. Bovill,** *The Golden Trade of the Moors,* Oxford, 1978, introd., p. xi .

(٥) *Ibid.,* pp. 1-2 .

(٦) **R. Oliver** and **J.D. Fage,** *A Short History of Africa*, Middlesex: Penguin Books Ltd., 1975, p. 61.

محمد الغربي ، بداية الحكم المغربي فى السودان الغربي ، الكويت : ١٩٨٢ ، ص ٢٦ .

(٧) **Oliver** and **Fage,** *op. cit.,* p. 61 .

(٨) كان موطن الجارامانتيز فزان وعاصمتهم جرما Djerma ، ويذكر أنهم الأجداد الأول للطوارق ، انظر :

J.Fage,*A History of West Africa,* Cambridge: Cambridge Universtiy Prss,1972, p. 14 .

دنيس بولم ، الحضارات الافريقية ، ترجمة على شاهين ، بيروت : دار مكتبة الحياة ، ١٩٧٤ ، ص ٣٤ .

(٩) **T. Shaw,** "The Prehistory of West Africa",*in*:**J.Ade Ajayi,** and **M. Crowder(eds.),** *History of West Africa,* London, 1976,vol. 1, p. 62.

الغربي ، بداية الحكم ، ص ٢٧ .

(١٠) **J.S. Trimingham,** *A History of Islam in West Africa*, London: Oxford UniversityPress, 1975, p. 13 .

(١١) **Bovill,** *op. cit.,* pp. 30, 39

(١٢) يشير البعض إلى أن إدخال الجمل وبداية استخدامة فى الصحراء الكبرى كان خلال القرن الميلادي الأول وأنه وجد فى أجزاء أخرى من افريقيا قبل هذا التاريخ انظر :

*Ibid.,*pp. 15, 36-38; **C. McEvedy,** *The Penguin Atlas of African History.* Middlesex, 1985, p. 44 .

(١٣) **N. Levtzion,** *Ancient Ghana and Mali.* London: Methuen and Co. Ltd., p. 126 .

(١٤) **بولم** ، الحضارات الافريقية ، ص ٣٥ .

(١٥) أصبحت تغازا بعد مجيء المسلمين إلى المنطقة أهم منجم للملح فى الصحراء وتقع إلى الجنوب من سجلماسه على الطريق التجاري الذى يربط هذه المدينة بغانه ، انظر :

Fage, *An Atlas of African History,* 1st ed., 1985,p.17 .

(١٦) **الغربي** ، بداية الحكم ، ص ص ٢٧ – ٢٨ ، **ريموند موني** ، طرق التجارة عبر الصحراء بين ليبيا ومناطق السفانا فى النيجر وتشاد قبل الفتح العربي ، مجلة البحوث التاريخية ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، السنة الثالثة ، العدد الأول ، ١٩٨١ ، ص ص ١٢٨ – ١٢٩ .

(١٧) **B. Davidson,** *Africa in History.* New York: Macmillan Publishing Company, 1974,p. 74 .

(١٨) **D.F. McCall,** *Islamization of the Western and Central Sudan in the llth Century*, Boston University Papers on Africa, Boston, 1971, vol. 5, p. 3 .

(١٩) **عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم** ، فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبد المنعم عامر ، القاهرة : لجنة البيان العربي ، ١٩٦١ ، ص ٢٩٣ ، كما أشار البلاذري إلى هذه الرواية ، انظر فتوح البلدان ، بيروت : دار الكتب العلمية ، ١٩٨٣ ، ص ٣٣ .

(٢٠) **عبد الله بن عبد العزيز البكري** ، المُغرْب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، باريس : المكتبة الشرقية الأمريكية ، ١٩٦٥ ، ص ١٧٩ .

(٢١) هو أحد أحفاد عقبة بن نافع الفهري ، ثار عليه أخواه الياس وعبد الوارث أثناء حكمه لافريقية «المغرب الأدنى» فقتل سنة ١٣٧هـ ، انظر الرقيق القيرواني ، تاريخ افريقيه والمغرب ، تحقيق المنجي الكعبي ، تونس : ١٩٦٨ ، ص ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢٢) **البكري** ، المُغرب ، ص ١٥٦ - ١٥٧ .

(٢٣) **الحبيب الجنحاني** ، المغرب الإسلامي : الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، تونس : الدار التونسية للنشر ، ١٩٧٨ ، ص ٦٢ .

(٢٤) **البكري** ، المُغرب ، ص ١٤٨ .

(٢٥) **محمود إسماعيل** ، الخوارج في المغرب الإسلامي ، بيروت : دار العودة ١٩٧٦ ، ص ٢٧٤ ، حاشية ٢٧٠ ، أشار إلى أن هذا التاريخ لبناء تاهرت ذكره **ابن خلدون** ، العبر ، جـ٦ ، ص ١٢١ ، ومن أخذ عنه وشك الكاتب في صحة التاريخ المذكور ورجح سنة ١٦١هـ مشيرا إلى أن مصدره **ابن عذاري** ، البيان المغرب ، جـ١ ، ص ٢٧٧ ، والحقيقة أن **ابن خلدون** ليس هو أول من ذكر أن تاهرت أسست سنة ١٤٤هـ بل ذكر ذلك قبله كل من **البكري** ، المغرب ، ص ٦٨ ، **وابن عذاري** ، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق كولان وبروفنسال ، ليدن ، بريل ، ١٩٤٨ ، جـ١ ، ص ٧١ - ٧٢ حيث قال في أحداث سنة ١٤٤هـ ما نصه «ولما انتهى إلى عبد الرحمن بن رستم قتل أبي الخطاب ولى هاربا إلى موضع تيهرت فاختطها ونزلها» . وانظر **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ١٠٢ حيث ناقش الخلاف في تحديد تاريخ بناء تاهرت .

(٢٦) **Levtzion**, *Ancient Ghana*, p. 27 .

(٢٧) **محمود إسماعيل** ، الخوارج ، ص ٢٠٧ .

(٢٨) هو محمد بن إبراهيم الفزاري توفي أواخر القرن الثاني الهجري ، انظر **ياقوت الحموي** ، **معجم الأدباء** ، القاهرة : دار المأمون ، ١٣٥٧هـ ، جـ١٧ ، ص ١١٧ .

(٢٩) انظر **علي بن الحسين المسعودي** ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، بيروت : دار المعرفة ، جـ٢ ، ص ٢٣٤ .

(٣٠) انظر: **J.F. Hopkins**, ed., *Corpus of Early Arabic Sources for West African History*, Cambridge, 1981, pp.7-9 .

(٣١) **أحمد بن اسحاق اليعقوبي** ، كتاب البلدان ، ليدن ، ١٩٦٧ ، ص ٣٦٠ وانظر **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ١٩٧ .

(٣٢) انظر **تاريخ اليعقوبي** ، بيروت : ١٩٦٠ ، جـ١ ، ص ص ١٩٣ - ١٩٤ .

(٣٣) **Levtzion**, *Ancient Ghana*, pp. 116, 118 .

(٣٤) **ترمنجهام** Trimingham ، مرجع سابق ، ص ٢٧ ، أشار إلى أنه بنهاية القرن السابع الميلادي (حوالي ٨١هـ) كان هناك تجار مسلمون من مصر وتونس والمغرب الأقصى يشهدون أسواق السودان التجارية . وقد استقر بعضهم فى المراكز التجارية كممثلين لتجار كبار من بلدانهم (شركات ؟) . والكاتب لم يشر إلى مصدر معين لما أورده من معلومات والمبالغة واضحة على ماقاله الكاتب ، فكما أوضحنا فى الصفحات السابقة ، حسب أهم المصادر المعروفة ، فإن اتصال التجار المسلمين من شمال افريقيا بالسودان الغربي لم يشاهد إلا فى القرن الثاني الهجري (النصف الاول من القرن الثامن الميلادي) فصاعدا ، فالمسلمون لم ينهوا فتح شمال افريقيا ويستقر الأمر لهم فيها إلا حوالي سنة ٩١هـ (٧٠٩م) ثم انشغل المسلمون ، سواء من العرب أو البربر ، بعد ذلك مباشرة بفتح اسبانيا . أما بالنسبة للتجار من مصر ، فكما أشار الكاتب نفسه فى الصفحة ذاتها فإن ذلك كان مواصلة لما كان يمارس قبل الإسلام ، لذلك لايمكن لأحد أن يجزم أن أولئك التجار كانوا من المسلمين ، إضافة إلى أن الكاتب لم يوضح هل كان التجار من هذه المناطق بالكثرة التي يمكن أن تؤدي إلى أهمية تجارية أم أنهم كانوا مجرد أفراد قلة ؟؟ .

(٣٥) **ابن خلدون** ، العبر ، جـ٦ ، ص ١٩٩ .

(٣٦) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٥ ، وقد كتب البكري هذا الوصف سنة ٤٦٠هـ (١٠٦٧م) أي قبل حوالي تسع سنوات من مجيء المرابطين إلى غانه .

(٣٧) أشار آدم متز Adam Mez فى حديثه عن التجارة فى الإسلام فى القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) إلى أنه اشتهر عن التاجر المسلم التزامه بالأمانة فى تعامله ، فكان أهلا لأن يوثق به كل الثقة . انظر الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجري (أو عصر النهضة فى الإسلام) ، ترجمة محمد أبو ريده ، بيروت : ط ٥ ، د ت ، جـ ٢ ، ص ٣٩٠ .

(٣٨) أبرز الدكتور حسن إبراهيم حسن مبدأ المساواة كعامل مهم فى انتشار الإسلام فى افريقيا . كما ناقش دور التجار المسلمين فى نشر الإسلام فى غرب افريقيا وكيف أنهم كانوا نماذج حية تمثلت فيها مبادىء الإسلام مما كان له أكبر الأثر فى اجتذاب السودانيين إليهم . انظر انتشار الإسلام فى القارة الأفريقية ، القاهرة : ١٩٦٤ ، ص ص ٧٣ – ٨١ ، **وتوماس أرنولد** ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون ، القاهرة : ١٩٧٠ ، ص ص ٣٩١ – ٣٩٧ .

(٣٩) انظر **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٤ – ١٧٥ .

(٤٠) نفس المصدر ، ص ١٧٥ .

(٤١) نفس المصدر ، ص ١٧٦ .

(٤٢) الصوننك هم من الماندنجو Mandingo (أو الشعوب المتكلمة بلغة الماندي) : Mande-Speaking Peoples لتفصيل أكثر عنهم انظر

A. Mabogunje, "The Land and Peoples of West Africa," *In:* **Ajayi** *and* **Crowder,** eds., *History of West Africa,* vol. 1, pp. 15-18 .

(٤٣) **إبراهيم على طرخان** ، امبراطورية غانه الإسلامية ، القاهرة : الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧٠ ، ص ٤٨ . ولم تصبح حكومة غانه إسلامية إلا بعد غزو المرابطين لها سنة ٤٦٩هـ (١٠٧٦م) الذين أقاموا عليها حاكمًا مسلمًا . ومنذ ذلك الوقت وحكومتها إسلامية حتى زوالها على أيدي الصوصو . انظر نفس المرجع ص ص ٥٢ – ٥٣ .

(٤٤) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٦ ، وانظر **Levtzion,** *Ancient Ghana,* p. 28 .

(٤٥) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٧ ، وانظر **طرخان** ، امبراطورية غانه ، ص ٤٨ .

(٤٦) **البكري** ، المغرب ص ١٧٩ ، **محمد بن حوقل النصيبي** ، صورة الأرض ، بيروت : ١٩٧٩ ، ص ٩١ .

(٤٧) انظر : **Trimingham,** *op. cit.,* pp. 84-85; **Davidson,** *Africa in History,* p. 71 .

(٤٨) **Hopkins,** ed., *op. cit.,* p. 450; **Trimingham,** *op. cit.,* p. 85 .

(٤٩) **Hopkins,** ed., *op. cit.,* p. 6; **Levtzion,** "The Early States of the Western Sudan to 1500", In: **Ajayi and Crowder,** eds., *History of West Africa,* vol. 1, p. 136 .

(٥٠) عن شعب الصنغاي انظر :

J. Hunwick, "Religion and States in the Songhay Empire," In: **I. Lewis,** *ed., Islam in Tropical Africa,* Oxford, 1969, pp. 296-297 .

(٥١) **Davidson,** *Africa in History,* p. 88; **Levtzion,** *The Early States of the Western Sudan,* pp. 135-136 .

(٥٢) **Davidson,** *Africa in History,* p. 88 .

ويلاحظ أن هذه المملكة الصغيرة كانت هي النواة الأولى لامبراطورية الصنغاي العظمى آخر امبراطوريات السودان والتي قامت سنة ٨٦٩هـ (١٤٦٤م) متخذة جاو عاصمة لها ، انظر :

Hunwick, *op. cit.,* pp. 297-298 .

(٥٣) **Bovill,** *op. cit.,* p. 133 .

(٥٤) **B. Davidson,** *The Lost Cities of Africa,* Boston, 1970, p. 100 .

(٥٥) **Levtzion,** *Ancient Ghana,* pp. 136, 183 .

(٥٦) *Ibid.,* p. 161 .

(٥٧) **البكري** ، **المغرب** ، ص ١٨٣ ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن اتجاه المسلمين فى المجتمعات غير المسلمة إلى الإقامة فى أماكن أو أحياء خاصة بهم ظاهرة لم يختص بها التجار المسلمون فى السودان فى ذلك الوقت ، بل وجدت فى أماكن وأزمان أخرى عندما يكون هناك أقلية إسلامية بين أكثرية أو أغلبية غير مسلمة . انظر على سبيل المثال : **محمود شاكر** ، العالم الإسلامي ، بيروت : المكتب الإسلامي ، ١٤٠٣هـ ، الصفحات ٢٠٢ ، ٢١٠ ، ٢٧٥ ، **Levtzion,** *Ancient Ghana,* p. 161 .

(٥٨) كتاب العزيزى ، نقلا عن **ياقوت الحموي** ، **معجم البلدان** ، بيروت ، ١٩٧٩ ، جـ ٤ ، ص ٤٩٥ (مادة كوكو) .

(٥٩) انظر **البكري** ، المغرب ، ص ١٨٣ ، **ياقوت الحموي** ، **معجم البلدان** ، جـ ٤ ، ص ٤٩٥ .

(٦٠) انظر **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٢ .

(٦١) انظر على سبيل المثال **Fage,** *A History of West Africa,* p.3

(٦٢) البكرى ، المغرب ١٦٧ – ١٦٨ ، ١٧٢ ، وانظر : **Trimingham,** *op. cit.,* pp. 41-42 .

(٦٣) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٢ .

(٦٤) يعتبر ابن حوقل (ت ٣٦٧هـ/٩٧٧م) أول من ذكر أوليل كمنجم بحري للملح (صورة الأرض ، ص ٩١) ، كما ذكرها بعد ذلك كل من **البكري** (المغرب ، ص ١٧١) والإدريسي (انظر **Hopkins,** ed., *op. cit.,* p. 106)

(٦٥) انظر ماكتب عن الملح فى موضوع «النتائج الفعلية لجهودات التجار المسلمين» فى هذا البحث .

(٦٦) فى إشارة ابن حوقل إلى أوليل ذكر أنها تقع على نحر البحر (صورة الأرض ، ص ٩١) ، وكذلك الإدريسي أشار إلى أنها جزيرة فى البحر قرب الساحل ، (انظر **Hopkins,** ed., *op. cit.,* p. 166)

(٦٧) **Levtzion,** *Ancient Ghana,* p. 171 .

(٦٨) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩١ .

(٦٩) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧١ .

(٧٠) انظر نفس المصدر ، ص ١٧٤ ، **وطرخان** ، امبراطورية غانه ، ص ص ٦٦ – ٦٧ .

(٧١) **Bovill,** *op. cit.,* p. 83 .

(٧٢) *Ibid.*

(٧٣) **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ١٨١ .

(٧٤) انظر على سبيل المثال : **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٤ و **محمد بن عبدالرحيم الأندلسي** ، تحفة الألباب ، تحقيق ج . فيراند فى : *Journal Asiatique, Paris, 1929,* Vol. **207**, pp. 41-42.

(٧٥) يبدو أن أول إشارة فى المصادر العربية إلى التجارة الصامتة فى تبادل الذهب بأرض السودان ظهرت عند **المسعودي** ، (ت ٣٤٦هـ/٩٥٧م) فى كتاب مروج الذهب (جـ ٢ ، ص ٢٦١) . ففي هذا الموضع ذكر أن مبايعة الذهب كانت تتم بدون مشاهدة ولا مخاطبة حيث يأتي التجار بالأمتعة ويضعونها أكواما على شاطىء النهر وينصرفون بعيدا عن الأنظار ، ثم يعودون ليجدوا أكوام الذهب إلى جانب البضائع . فإن اقتنع التاجر بكمية الذهب أخذها وترك الأمتعة وإن لم يقتنع وأراد المزيد ترك الجميع وانصرف . وقد لايحصل على زيادة فى الذهب وربما تكرر هذه المحاولات . . وهكذا . ويلاحظ أن هذه الطريقة فى التبادل لم تكن مقصورة على السودان الغربي ، إذ يشير المسعودي فى نفس الصفحة إلى أنها وجدت فى بقاع أخرى ، وذكر أقاصي بلاد خراسان كمثال على ذلك .

أما سبب ممارسة هذه الطريقة فى السودان فإن البعض علل ذلك بأن السكان الأصليين التجأوا إليها لئلا يعرف التجار وغيرهم مواقع مناجم الذهب فتبقى بذلك سرا لايعرفه إلا الأهالي . انظر :

Hopkins, ed., *op. cit.,* p. 30; **Levtzion,** *Ancient Ghana,* p. 153.

(٧٦) **طرخان** ، امبراطورية غانه ، ص ص ٦٧ – ٦٨ ، **Davidson,** *The Lost Cities,* p. 82.

(٧٧) **محمد الغربي** ، بداية الحكم ، ص ٤٠ – ٤١ .

(٧٨) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٦ . ويبدو أنه قبيل دخول القوافل إلى أراضي مملكة غانه يجزىء التجار أحمال

الجمال إلى أقسام صغيرة لتنقلها الحمير داخل غانه كإجراء فرضته السلطات فيها من أجل الضرائب ، انظر :
Davidson, *Africa in History,* p. 76.

(٧٩) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٧ .

(٨٠) انظر **Bovill,** *op. cit.,* pp. 81-82

(٨١) انظر **Davidson,** *Africa in History,* p. 76.

(٨٢) انظر **Levtzion,** *Ancient Ghana,* pp. 115-116.

(٨٣) **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ٢٩ .

(٨٤) انظر **Hopkins,** ed., *op. cit.,* p. 41.

(٨٥) **البكري** ، المغرب ، ص ١٦٨ .

(٨٦) **طرخان** ، امبراطورية غانه ، ص ص ٧٣ – ٧٤ .

(٨٧) انظر **Hopkins,**ed., *op. cit.,* p. 107.

(٨٨) **Levtzion,** *Ancient Ghana,* p. 171.

(٨٩) *Ibid.,* pp. 171-172.

(٩٠) انظر **طرخان** ، امبراطورية غانه ، ص ص ٧٤ – ٧٥ .

(٩١) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩٨ .

(٩٢) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٤ .

(٩٣) تحفة الألباب ، ص ص ٤١ – ٤٢ .

(٩٤) انظر **Hopkins,** ed., *op. cit.,* p. 107.

(٩٥) **البكري** ، المغرب ، ص ١٥٨ .

(٩٦) نفس المصدر ، ص ١٨١ .

(٩٧) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩٨ .

(٩٨) **طرخان** ، امبراطورية غانه ، ص ص ٧٤ – ٧٥ .

(٩٩) انظر **Levtzion,** *Ancient Ghana,* p. 173.

(١٠٠) **الجنحاني** ، «الحياة الاقتصادية والاجتماعية في سجلماسه عاصمة بني المدرار» مجلة المؤرخ العربي ، بغداد : العدد الخامس ، ص ١٤٨ .

(١٠١) صورة الأرض ، ص ٩٤ .

(١٠٢) **البكري** ، المغرب ، ص ١٥١ .

(١٠٣) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩٦ .

(١٠٤) نفس المصدر ، ص ٦٥ . ولقد ساد الاعتقاد أن ابن حوقل زار أودغشت وذلك استنتاجا على مايبدو من عبارة أخرى للمؤلف (نفس المصدر ، ص ٩٦) أخبر فيها عن مشاهدته للصك في هذه المدينة ، إلا أن الدراسة التي قدمها لفتزيون **Levtzion** في بحث له بعنوان
"Ibn Hawqal, The Cheque, and Awdaghost" *Journal of African History,* 1968, Vol.IX, Part 2, pp. 223-233, أظهرت أن ما أورده ابن حوقل من نصوص عن الصحراء والسودان الغربي لاتؤيد أنه زار

أودغشت ، كما أشارت الدراسة أيضا إلى الغموض الذى اكتنف العبارة الثانية ، لذلك رجح كاتب البحث المذكور أن ابن حوقل لم يزر أودغشت ، وأن الصك كتب فى هذه المدينة وشاهده ابن حوقل فى سجلماسه وهي المكان الذى استلم فيه الدائن المبلغ ، وهذا فى الحقيقة مايفهم من العبارة الأولى (ص ٩٦) وهي التي اعتمدنا عليها فى البحث الذى بين أيدينا .

(١٠٥) **Fage,** *A History of West Africa,* p. 2.

ويلاحظ أن الأستاذ فيج Fage ذكر فى إشارته إلى الصك أن المبلغ كان ٤٠,٠٠٠ دينار هذا بالرغم من أن ابن حوقل ذكر بالنص أن المبلغ كان ٤٢,٠٠٠ فى موضعين من كتابة صورة الأرض (ص ٦٥ و ٩٦) والأستاذ فيج لم يشر إلى مصدره . ويبدو أن الالتباس وجد فى الترجمة الفرنسية للجزء الخاص بأفريقيا من كتاب ابن حوقل حيث وقع فى نفس الالتباس الأستاذ بوفل Bovill (مرجع سابق ، ص ٧١) ، وأشار إلى هذه الترجمة كمرجع له .

(١٠٦) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩٦ .

(١٠٧) انظر : **Bovill,** *op. cit.,* p. 101; **Davidson,** *Africa in History,* p. 61.

(١٠٨) **أبو بكر عبدالله بن ابي عبدالله المالكي** ، رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان ، جـ ١ ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة : ١٩٥١ ، ص ٣٨٨ .

(١٠٩) ربما كانت هناك أسبابا أخرى أدت إلى عزوف ذلك الرجل عن أخذ الأرث ، فعلى سبيل المثال ، الفقيه عبدالله بن أبي زيد القيرواني المالكي (ت ٣٨٦هـ/٩٩٦م) يرى عدم إباحة ناب الفيل الذى لم يذبح حسب الطريقة الشرعية . عن الفقيه القيرواني ونص فتواه انظر : **Hopkins,** ed., *op. cit.,* p. 55.

(١١٠) **طرخان** ، امبراطورية غانه ، ص ٦٥ .

(١١١) **متـز** ، الحضارة الإسلامية ، جـ ٢ ، ص ص ٣١٦ — ٣١٧ .

(١١٢) **Bovill,** *op. cit.,* p. 101.

(١١٣) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٩ .

(١١٤) **Hiskett,** "Material Relating to the Cowry Currency of the Western Sudan" *Bulletin of the School of Oriental and African Studies,* 1966, **29,** Part 2, p. 30.

(١١٥) *Ibid.,* p. 347 . ولمزيد من المعلومات عن قيمة الودع المادية واستخدامه فيما بعد كعملة فى منطقة غرب افريقيا ، انظر :

Ibid., pp. 346-358; **Johnson,** "The Cowrie Currencies of West Africa" *Journal of African History,* **1970, Vol. 11,** part 3, pp. 331-353.

(١١٦) انظر **Hopkins,** ed., *op. cit.,* p. 128.

(١١٧) *Ibid.,* p. 130.

(١١٨) **البكري** ، المغرب ، ص ١٥٩ و ١٧٩ وانظر :

Hopkins, ed., *op. cit.,* pp. 38-39.

(١١٩) **Hopkins,** ed., *op. cit.,* pp. 39,128.

(١٢٠) **Bovill,** *op. cit.,* p. 105.

(١٢١) **البكري** ، المغرب ، ص ١٧٣ .

(١٢٢) نفس المصدر ، ص ١٥٢ .

(١٢٣) نفس المصدر ، ص ١٥٨ ، **متز** ، الحضارة الإسلامية ، جـ ٢ ، ص ٣١٠ .

(١٢٤) **ابن الفقيه الهمذاني** ، مختصر كتاب البلدان ، ليدن ، ١٨٨٥ ، وأعادت نشره مكتبة المثنى ، بغداد : د ت ، ص ٨٠ .

(١٢٥) **البكري** ، المغرب ، ص ١٦١ .

(١٢٦) **البكري** ، المغرب ، ص ١٥٩ ، ويلاحظ أنه سبقت الإشارة إلى أن بلاد التكرور كانت تصدر نوعا من المنسوجات القطنية تسمى الشكات ، وهو نوع مشهور ، ولاشك أن في إشارة المصادر إلى أن السودان كان يستورد المنسوجات القطنية دليل على أن إنتاج السودان من هذه السلعة لم يكن يسد حاجة السكان هناك .

(١٢٧) **Brett,** "Ifriqiya as a Market for Saharan Trade From the 10th to the 12th Century A.D." *Journal of African History,* 1969، Vol. **10,** part 3, p. 357.

(١٢٨) **Hopkins,** ed., *op. cit.,* p. 128.

(١٢٩) **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ٥٨ و ٥٩ .

(١٣٠) **المالكي** ، رياض النفوس ، ص ١١٧ ، وعن **الفقيه ابن فروخ** ، انظر نفس المصدر ، ص ص ١١٣ - ١٢٢ .

(١٣١) ويقال أيضا المضاربة ، راجع **ابن منظور** ، لسان العرب ، بيروت : جـ ٧ ، ص ٢١٨ .

(١٣٢) وهو علي بن محمد المعافري ، ويعرف بابن القابسي ، توفي سنة ٤٠٣هـ/١٠١٢م ، انظر **ابن العماد الحنبلي** ، شذرات الذهب ، بيروت : جـ ٣ ، ص ١٦٨ .

(١٣٣) عن ما أورده الونشريسي بخصوص الفتوى والإجابة عليها انظر **ميتشل برت** ، «فتويان من أواخر القرن الرابع الهجري تتعلقان بالتجارة عبر الصحراء» ، مجلة البحوث التاريخية ، العدد الأول ١٩٨١ ، ص ٦٢ و ٦٣ .

(١٣٤) **Hopkins,** ed., *op. cit.,* p. 113.

(١٣٥) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٦٥ ، وانظر الحاشية رقم ١٠٤ من هذا البحث .

(١٣٦) الحضارة الإسلامية ، جـ ٢ ، ص ٣٧٩ و ٣٨٠ .

(١٣٧) انظر **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩٩ ، **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ١٧٧ .

(١٣٨) **C. Julien,** *History of North Africa,* Translated by **J. Petrie,** London, 1970, p. 77.

(١٣٩) **Lewis,** ed., *Islam in Tropical Africa,* Intro., pp. 23-24.

(١٤٠) **محمد بن عبدالمنعم الحميري** ، الروض المعطار في خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت : ١٩٧٥م ، ص ٣٠٦ ، وانظر **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ١٥٢ .

(١٤١) انظر ابن حوقل ، صورة الأرض ، ص ٦٥ .

(١٤٢) **الحميري** ، الروض المعطار ، ص ٣٠٦ ، الجنحاني ، المغرب الإسلامي ، ص ١٤٩ .

(١٤٣) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩٧ .

(١٤٤) **ياقوت الحموي** ، معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ١٩٢ .

(١٤٥) **Levtzion,** *Ancient Ghana,* p. 136; **Brett,** *"Ifriqiya as a Market",* p. 356.

(١٤٦) **محمود إسماعيل** ، الخوارج ، ص٢١١ .

(١٤٧) **Levtzion,** *Ancient Ghana,* p. 136.

(١٤٨) *Ibid.,* p. 137.

(١٤٩) انظر **Hopkins,** ed., *op. cit.,* pp. 108, 111, 128.

(١٥٠) انظر **الحميري** ، الروض المعطار ، ص ٤٦ .

(١٥١) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩٧ .

(١٥٢) انظر **Hopkins,** ed., *op. cit.,* p. 128.

(١٥٣) انظر *Ibid.,* p. 108.

(١٥٤) **Davidson,** *The Lost Cities,* pp. 85-88; **Levtzion,** *Ancient Ghana,* pp. 23-24.

(١٥٥) *Ibid.,* p. 24.

(١٥٦) انظر ماكتب عن مملكة جاو فى الصفحات السابقة من هذا البحث .

(١٥٧) انظر **Hopkins,** ed., *op. cit.,* p. 113.

(١٥٨) **ابن حوقل** ، صورة الأرض ، ص ٩١ .

(١٥٩) انظر **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ١٩٤ .

(١٦٠) **البكري** ، المغرب ، ١٥٩ .

(١٦١) نفس المصدر ، ص ١٥٨ .

(١٦٢) انظر **الجنحاني** ، المغرب الإسلامي ، ص ٢٠٩ .

(١٦٣) **البكري** ، المغرب ، ص ١٨١ .

المراجـــع

أولا : المراجع العربيـة

آرنولد ، توماس ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم حسن وآخرون ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٧٠ .

إسماعيل ، محمود ، الخوارج فى المغرب الإسلامي ، بيروت ، دار العودة ، ١٩٧٦ .

الأندلسي ، أبو حامد محمد بن عبدالرحيم (ت ٥٦٥هـ) تحفة الألباب ، تحقيق ج . فيراند ، نشر فى : *Journal Asiatique,* Tom, 207 Paris, 1925.

برت ، ميتشل ، «فتويان من أواخر القرن الرابع الهجري تتعلقان بالتجارة عبر الصحراء» مجلة البحوث التاريخية ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، السنة الثالثة العدد الأول ، ١٩٨١ .

البكري ، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز (ت ٤٨٧هـ) المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق م . ج . دي سلان ، الجزائر ، ١٨٥٧ ، وأعادت نشره المكتبة الشرقية الأمريكية ، باريس ، ١٩٦٥ .

البلاذري ، أحمد بن يحيى (ت ٢٧٩هـ) فتوح البلدان ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٤٠٣هـ .

بولم ، دنيس ، الحضارات الأفريقية ، ترجمة على شاهين ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٧٤.

الجنحاني ، الحبيب ، المغرب الإسلامي : الحياة الاقتصادية والاجتماعية (٣ - ٤هـ / ٩ - ١٠م) ، تونس ، الدار التونسية للنشر ، ١٣٩٨هـ .

الجنحاني ، الحبيب ، «الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى سجلماسه عاصمة بني المدرار» ، مجلة المؤرخ العربي ، بغداد ، العدد الخامس ، د . ت .

حسن ، حسن إبراهيم ، انتشار الإسلام فى القارة الافريقية ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٤ .

الحموي ، ياقوت بن عبدالله (ت ٦٢٦هـ) معجم الأدباء ، القاهرة ، دار المأمون ، ١٣٥٧هـ .

الحموي ، ياقوت بن عبدالله ، معجم البلدان ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، ١٩٧٩ .

الحميري ، محمد بن عبدالمنعم (ت ٧٢٧هـ ؟) الروض المعطار فى خبر الأقطار ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ، مكتبة لبنان ، ١٩٧٥م .

الحنبلي ، عبدالحي بن أحمد بن العماد (١٠٨٩هـ) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، د . ت .

ابن حوقل ، أبو القاسم محمد بن حوقل (ت بعد ٣٦٧هـ) صورة الأرض ، بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٧٩م .

ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) كتاب العبر وديون المبتدأ والخبر . . ، بيروت ، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات ، ١٣٩١هـ .

طرخان ، إبراهيم على ، امبراطورية غانه الإسلامية ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٣٩٠هـ .

ابن عبدالحكم ، عبدالرحمن بن عبدالله (ت ٢٥٧هـ) فتوح مصر والمغرب ، تحقيق عبدالمنعم عامر ، القاهرة ، لجنة البيان العربي ، ١٩٦١ .

ابن عذاري ، أبو العباس أحمد بن محمد (ت بعد ٧١٢هـ) البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، تحقيق ج . س . كولان و ا . ل . بروفنسال ، ليدن ، بريل ، ١٩٤٨ .

الغربي ، محمد ، بداية الحكم المغربي فى السودان الغربي ، الكويت ، مؤسسة الخليج للطباعة والنشر ، ١٩٨٢ .

القيرواني ، الرقيق أبو اسحاق إبراهيم بن القاسم (ت بعد ٤١٧هـ) تاريخ افريقية والمغرب : قطعة منه تبدأ من أواسط القرن الأول إلى أواخر القرن الثاني هـ ، تحقيق المنجي الكعبي ، تونس ، ١٩٦٨ .

المالكي ، أبو بكر عبدالله بن ابي عبدالله (ت بعد ٤٤٩هـ) رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان ، جـ١ ، تحقيق حسين مؤنس ، القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥١ .

متز ، آدم ، الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع هـ (أو عصر النهضة فى الإسلام) ، ط ٥ ، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريده ، بيروت ، دار الكتاب العربي ، د . ت .

المسعودي ، على بن الحسين (ت ٣٤٦هـ) مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محيى الدين عبدالحميد ، بيروت ، دار المعرفه ، د . ت .

ابن منظور ، أبو الفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ) لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، د . ت .

موني ، ريموند ، «طرق التجارة عبر الصحراء بين ليبيا ومناطق السفانا فى النيجر وتشاد قبل الفتح العربي» مجلة البحوث التاريخية ، مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية ، طرابلس ، السنة الثالثة ، العدد الأول ، ١٩٨١ .

الهمذاني ، أحمد بن محمد بن الفقية ، (ت . نحو ٣٤٠هـ) مختصر كتاب البلدان ، تحقيق دى غوية ، ليدن ، ١٨٨٥م ، وأعادت نشره مكتبة المثنى ببغداد ، د . ت .

اليعقوبي ، أحمد بن اسحاق ، (ت بعد ٢٩٢هـ) ، كتاب البلدان ، ليدن ، بريل ، ١٩٦٧ .

اليقوبي ، أحمد بن اسحاق ، تاريخ اليعقوبي ، بيروت ، دار صادر ، ١٩٦٠ .

ثانياً : المراجع الأجنبية

Ajayi, J.F. and **Crowder, M.,** eds., *History of West Africa.* vol. 1, London: Longman, 1976.

Bovill, E.W., *The Golden Trade of the Moors.* Oxford: Oxford University Press, 1978.

Brett, M., Ifriqiya as a Market for Saharan Trade from the 10th to the 12th century A.D., *Journal of African History,* **10,** part 3, 1969.

Davidson, B., *Africa in History.* New York: Macmillan Publishing Company, 1974.

————, *The Lost Cities of Africa.* Boston: Little Brown and Company, 1970.

Encyclopaedia of Islam, Vol. IV, Leyden, 1934.

Fage, J.D., *A History of West Africa.* Cambridge: Cambridge University Press, 1972.

————, *An Atlas of African History,* Edward Arnold Ltd., 1st ed., 1958.

Hiskett, M., Material Relating to the Cowry Currency of the Western Sudan, *Bulletin of the School of Oriental and African Studies,* **29,** part 2, 1966.

Hopkins, J.F. ed., *Corpus of Early Arabic Sources of West African History.* Cambridge: Cambridge University Press, 1981.

Hunwick, J., Religion and State in the Songhay Empire, *In:* **Lewis,** ed., *Islam in Tropical Africa.* Oxford: Oxford University Press, 1969.

Jarrett, H.R., *An Outline Geography of Africa.* London: Methuen Educational Ltd., 1971.

Julien, C., *History of North Africa: Tunisia, Algeria, Morocco.* Translated by **J. Petrie,** London: Routledge and Kegan Paul, 1970.

Levtzion, N., *Ancient Ghana and Mali.* London: Methuen and Co. Ltd., 1973.

————, The Early States of the Western Sudan to 1500, *in:* **Ajayi** and **Crowder,** eds., *History of West Africa,* Vol. 1, London, 1976.

————, Ibn Hawqal, The Cheque, and Awdaghost, *Journal of African History,* **9,** part 2, 1968.

Lewis, I.M., ed., *Islam in Tropical Africa.* Oxford, 1969.

Mabogunje, A., The Land and Peoples of West Africa. *In:* **Ajayi** and **Crowder,** eds., *History of West Africa,* Vol. 1, London, 1976.

McCall, D.F., Islamization of the Western and Central Sudan in the 11th Century. *Boston University, Papers on Africa,* Vol. **5,** 1971.

McEvedy, C., *The Penguin Atlas of African History.* Middlesex: Penguin Books Ltd., 1985.

Oliver, R. and **Fage, J.D.,** *A Short History of Africa.* Middlesex: Penguin Books Ltd., 1975.

Shaw, T., The Prehistory of West Africa. *In:* **Ajayi** and **Crowder,** eds., *History of West Africa,* Vol. 1, London, 1976.

Trimingham, J.S., *A History of Islam in West Africa.* London: Oxford University Press, 1975.

The Role of Muslim Traders in the Promotion of Trade between Al-Maghrib and Western Sudan from the Early 3rd Century Up to the End of the 5th Century A.H.

SAUD HAMAD AL-KHATHLAN
Assistant Professor, Department of History,
Faculty of Arts and Humanities,
King Abdulaziz University, Jeddah, Saudi Arabia

ABSTRACT. The present paper aims at shedding light on the active role played by Muslim traders in the trans-Saharan trade between Al-Maghrib and Western Sudan in the period referred to above. In handling this topic the researcher hopes to illustrate the enormous effort and painstaking work which those traders undertook to benefit these countries on both sides of the Sahara.

This area of commercial relationships, as a topic of study has not received due attention from researchers. In this respect we do not have more than scattered references in some related works.

Commercial contact between north and south of the Sahara was old and caravans crossed the desert carrying trade for centuries. The Phoenicians and the Romans participated in it for a long time.

When Muslims appeared on the scene they gave the Saharan trade new impetus. During their time the Saharan trade prospered immensely.

In conclusion, the paper shows that never at any previous era has this trade increased in value and volume as it has done during the Muslim time. Volume of goods, especially gold and salt, increased enormously. New arrangements and a code of commercial rules were introduced to the area to facilitate the flux of the trade. The centers of trade in both areas flourished and expanded.

Eventually, it is worth mentioning that the paper depended largely on primary sources provided by Muslims writers such as Ibn Hawqal, who visisted Sijilmasa and Al-Bakry who depended on first hand information from traders and other authorities.